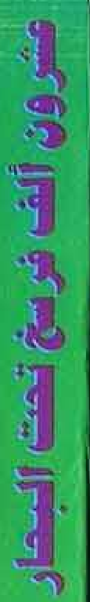
روايات عالمية للناشئة

عشرون ألف فرسخ تحت البحار

جول فيرن

RABIE



جول فيرن



9

عشرون ألف فرسخ تحت البحار

جول فيرن

كانت السفن التجارية تختفي في عُرض المحيطات ، أو تتحطم وتغرق ، لا يعرف أحد سبب ذلك . ثم تبين أن وحشاً بحرياً لا مثيل له وراء هذه الجرائم .. وتنطلق إحدى السفن الحربية لمطاردته ، فماذا تكتشف؟

صدر من هذه المجموعة :

1 ـ الذئب الأبيض
2 ـ توم سوير
3 ـ الهندي الشجاع
4 ـ مذكرات حمار
5 ـ نداء الغابة
6 ـ روبنسون كروزو
7 ـ هايدي
8 ـ حكايات أندرسون
9 ـ عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10ـ ريمي الصغير
11ـ نساء صغيرات
12ـ جزيرة الكنز
13ـ حول العالم في ثمانين يوماً
14ـ كوخ العم توم
15ـ شرلوك هولمز
16ـ مغامرات الكابتن فراكاس
17ـ حرب النار
18ـ الحوت الأبيض
19ـ كتاب الأدغال
20ـ أحدب نوتردام
21ـ اللورد الصغير
22ـ الشيطان الصغير
23ـ أحزان صوفي
24ـ فتيات مثاليات

تصميم الغلاف : هيثم فرحات



عشرون ألف فرسخ تحت البحار

(جول فيرن)

1905 –1828

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشـراف : محمـد كمـال

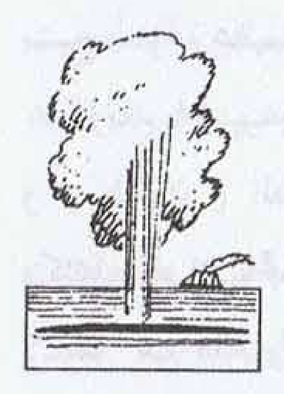
إخراج فني : م. نشوان خريط



الجزء الأول

الفصل الأول

الحيوان البحري



جرت في سنة 1886 حادثة غير عادية شغلت العاملين في البحر ، من قباطنة وضباط وتجار ، لأنها تتعلق بهم خاصة . وذلك أن عدداً من السفن قد صادفت في أعالي البحار شيئاً ضخماً يتنقل بسرعة وقوة لا سابقة لهما . وهو حوت أو حيوان بحري لم يعرفه العلماء من قبل ، ولا يمكن اعتباره من تهاويل الخيال ، لأن التقارير اليومية قد اتفقت على ملاحظة هذا المخلوق الهائل ووصفت تنقلاته .

وقد ذكر قبطان سفينة (كوفرن هيجون) أنه كان مبحراً في السواحل الأسترالية يوم 20 تموز ، فرأى ذلك

المخلوق العجيب وهو يقذف عمودين من الماء والبخار بارتفاع عظيم ، كما تفعل الحيتان . ولاحظت الشيء نفسه سفينة (كريستو بال كولن) على مسافة سبعمائة فرسخ يجري من ذلك الموقع يوم 23 تموز . وكان المخلوق البحري يسبح بسرعة عظيمة .

وبعد أسبوعين لاحظت السفينتان (هلفيتا) و (شانون) الظاهرة نفسها في عرض المحيط الأطلسي وكانتا تبحران باتجاهين متعاكسين . وذُكر أن طول الحوت لا يقل عن مائة وستة أمتار ، على حين أن أضخم حوت معروف لا يتجاوز الخمسين متراً طولاً .

وتناقلت الصحف هذه الأنباء ، وعُقدت الاجتماعات لمناقشة هذه الظاهرة ، وانقسم العلماء بين مؤيد ومعارض لوجودها ، واستمر ذلك حوالي ستة أشهر . ثم هدأ الحوار حولها وتناساها الناس ، ولكنها عادت لتتصدر الأنباء بشكل رهيب ، لأنها تشكل خطراً على المواصلات البحرية .

وذلك أن السفينة المسماه (الموارفيه) التي تنقل مائتين وسبعة وثلاثين راكباً من كندا اصطدمت في عرض السواحل الأمريكية بعقبة غير مذكورة في أي خريطة من الخرائط البحرية . ولولا صلابة هيكلها لتعرضت إلى كارثة أكيدة . وحين وصلت إلى الميناء وفُحصت عن قرب تبين أنها أُصيبت بأضرار بليغة ، وذكر ملاحوها أنهم لم يروا سوى فوران الزبد على سطح البحر .

وتعددت مثل هذه الحوادث ، وكان آخرها ما تعرضت له السفينة (سكوتيا) ما بين جزر الأنتيل وجزر الرأس الأخضر إذ اصطدمت بشيء ما ، وظنّ البحارة أن سفينتهم قد انقسمت شطرين ، ولكنهم استطاعوا النجاة من الغرق بمعجزة إلهية ، ووصلوا إلى ليفربول ، وبعد فحص السفينة وجدوا في هيكلها الحديدي شَرْخاً لا تقدر على إحداثه إلا قوة هائلة ، وتوجهت أصابع الاتهام إلى ذلك المخلوق البحري العجيب .

ولم تنقض تلك السنة حتى اختفت في عُرض المحيطات حوالي مائتي سفينة . ولم يعد النقل البحري آمناً ، وارتفعت الأصوات تطالب بالقضاء على هذا المخلوق الخطير .

أثناء هذه الأحداث ، اشتركتُ في بعثة علمية إلى (نبراسكا) باعتباري أستاذاً في متحف التاريخ الطبيعي بباريس ، وفي نهاية شهر آذار كنت في نيويورك أهيأ للعودة إلى فرنسا ، مُحمّلاً بمجموعة من العيّنات المعدنية والنباتية والحيوانية ، وانصرفت إلى تتبع أخبار هذه القضية من الصحف . ولاحظت أنها عرضَت نظريتين قابلتين للنقاش ، الأولى : أن يكون ذلك الشيء العجيب حيواناً ذا قوة هائلة ، والثانية : أن يكون غواصة ذات طاقة عظيمة . وسرعان ما أُهملت النظرية الثانية لأنه لا يستطيع فرد من الأفراد الحصول على مثل هذه الغواصة لما تتطلبه من الوسائل المالية الطائلة ، ويحتاجه بناؤها من السرّية التامة .



وأما الدول والحكومات فقد كانت مشغولة في تلك الفترة بالحروب ، وقد تبين من التقارير الواردة من شتى الأقطار أن فرنسا وإنكلترا وروسيا وبروسيا وإسبانيا وإيطاليا وتركيا لم تعمد إلى بناء مثل هذه الغواصة لانعدام الوسائل المادية الكافية لديها ، ولم يكن من مصلحة إحدى هذه الدول عرقلة خطوط الملاحة البحرية ، وهي غير قادرة على الاحتفاظ بمثل هذا السر لأن بعضها يتجسس على بعض ويرقب كل تحركاته ، فما بالك إذا كان صاحب المشروع رجلاً فرداً ؟

وقد سُئلت في نيويورك عن هذا الموضوع لأني مختص في الحيوانات البحرية ، ولي مؤلف بعنوان (عجائب أعماق البحار) وكلفتني جريدة (نيويورك هيرالد) بكتابة مقالة حوله . فذكرت في المقالة إمكانية أن يكون الحيوان من نوع الحوت " الأقرن " ، أي الذي يحمل على رأسه قرناً يشبه سيفاً من العاج ، صلباً كالفولاذ ، فإذا وجد حوت ضخم من هذا النوع أمكنه أن يسبب من الأضرار ما سببه للسفينة

(سكودا) ، وأن يتطابق مع الأوصاف التي ذكرها بحارة السفينة (شانون) .

وقد قوبلت مقالتي بالتقدير ، ولم يعد الحيوان البحري شيئاً لا وجود له . لذلك كلفت حكومة الولايات المتحدة فرْقاطةً حربية تدعى (أبراهام لنكولن) بمطاردة هذا الحوت الأقرن ، وجهّزتها بالمعدات الكاملة وكانت مستعدة للإبحار . ولكن الحيوان الغريب اختفى وكأنما حذّره أحد ، أو كان يقرأ الصحف ..

وبعد شهرين شوهد الحيوان في المحيط الهادي يوم 3 تموز، فتقرر إرسال الفرقاطة فوراً ، ووصلتني الرسالة التالية :

" سيدي : إذا كان لديكم رغبة في الانضمام إلى بعثة الفرقاطة " أبراهام لنكولن " فإن حكومة الولايات المتحدة يسعدها أن تكون فرنسا ممثلة في شخصكم الكريم في هذه البعثة ، وقد وضع الضابط (فراغوت) مقصورة خاصة تحت تصرفكم .

سكرتير البحرية : ج . هـ . هوبسون "

الفصل الثاني

التجوال في المحيط

كنت شديد الشوق إلى المساهمة في هذه البعثة على الرغم من تعبي ورغبتي في العودة إلى حديقة النباتات في باريس ، وتمنيت أن نتمكن من اصطياد هذا المخلوق البحري في الشواطئ الأوروبية حتى يُضاف إلى مجموعة المتحف الفرنسي ذلك الرمح العاجي الفريد في العالم .

وهتفت :

– كونسيل !

وكونسيل هو خادمي ، وهو شاب رائع يرافقني حيثما ذهبت ،ويتصف بالهدوء والنظام وإتقانه لأشياء كثيرة .

وقد اعتاد العيش معي في متحف التاريخ الطبيعي ، فأحرز معلومات كثيرة في تصنيف الحيوانات إلى فصائلها وأنواعها وأجناسها ، ولكن علمه لا يتجاوز التصنيف ، إذ إنه قادر على معرفة سمك القرش من سواه . وجاءنا جوابه :

– هل سيدي ينادي ؟

وعيب كونسيل أنه لا يخاطبني إلا بصيغة ضمير الغائب ، فقلت له :

– نعم يا ولدي ، سنرحل خلال ساعتين ، فاحزم الحقائب ولا تحمل إلا الأشياء الضرورية .. وبسرعة ؟

– سأرسلها إلى فرنسا إذن ؟

فقلت أداوره :

– طبعاً ، ولكن بعد جولة قصيرة .

– ليتجول سيدي كما يشاء .

– سنبحر فوق الفرقاطة (أبراهام لنكولن) لمطاردة الحيوان البحري الأقرن ، وهي بعثة مجيدة ولكنها محفوفة بالمخاطر .

– كما يشاء سيدي .

بعد ربع ساعة كنا قد دفعنا فاتورة الفندق وأرسلنا مجموعاتي إلى فرنسا ، وركبنا السيارة إلى بروكلين ، وهناك رأينا الفرقاطة تنفث الدخان استعداداً للرحيل .

صعدنا إليها في الحال ودلّنا أحد البحارة على مقصورتنا ، فتركت فيها كونسيل وذهبت لرؤية الضابط فراغوت ، فرحب بي ورافقته لمشاهدة مناورات الإبحار ، فلم يلبث أن أعطى أمره قائلاً :

– إلى الأمام !

فانطلقت الفرقاطة موازية لأرصفة ميناء بروكلين والناس يلوحون بمناديلهم ويهللون لها ، فوصلت الساعة الثامنة مساء إلى مياه الأطلسي .

وكان الضابط فراغوت جزءاً من فرقاطته ، فقد انطلق لمطاردة الحيوان المتوحش كأنه فارس من العصور الوسطى ، فإما أن يقتل الوحش أو يقتله الوحش ، وبَحّارته يقتدون به ،

ولكن لديهم دافعاً آخر هو مكافأة قدرها ألفا دولار لمن يرى الوحش أولاً .

كانت الفرقاطة قمة في التجهيزات ، ففيها رماح عادية كسفينة صيد الحيتان ، وطلقات نارية انفجارية ، وقد نصب في مقدمتها مدفع متطور هو أفضل ما وصلت إليه العلوم سنة **1867** ، قادر على إطلاق قنبلة وزنها أربعة كيلو غرامات إلى مسافة ستة كيلو مترات .

ولكن السلاح الأكثر فتكاً على متن الفرقاطة هو : نيدلاند . ونيدلاند هذا ملك الرمَّاحين وسيد من سَدّد رمحاً إلى حوت ، فقد كان حاد النظرات ، قوي الذراعين ، ماهراً شجاعاً ويساوي وحده طاقماً .

وكان له نفس عمري ، أي أربعون عاماً ، وأصله من الكيبك الكندية ، مما قرّبه إليّ باعتباري فرنسياً ، وسوف تنعقد صداقة بيننا على إثر هذه المغامرات التي عشناها معاً .

أما الآن ، فإن نيدلاند هو الشخص الوحيد على ظهر الفرقاطة الذي يشك في وجود الحوت الأقرن العملاق ، ولم

تستطع براهيني العلمية أن تغير رأيه ، ولا يستطيع هذا الرمّاح المجرب أن يعتقد بوجود حوت عملاق قادر على شطر سفينة مثل " سكوتيا " .

لذلك كان يقضي وقته في القراءة والنوم ، وأما على ظهر السفينة فقد كانت الحماسة لاهبة .

فكل بحار أو ضابط يمد بصره إلى الأفق لعله يلمح الحوت العملاق ، وكم من مرة انطلقت الفرقاطة إلى نقطة سوداء بعيدة ، فوجدها حوتاً عادياً أو دلفيناً مألوفاً .

اجتازت السفينة (كاب هورن) ودخلت مياه المحيط الهادي ، وعبرنا يوم 20 تموز خط الاستواء ، وأبحرنا نحو المنطقة التي شوهد فيها الوحش آخر مرة .

ولبثت السفينة تتجول ثلاثة أشهر شمال المحيط الهادي ، ما بين الساحل الأميركي والساحل الياباني ، فلم نعثر له على أثر . ولم يعد في وسعنا الاستمرار في البحث ، وقد نال منا اليأس ، حتى أكثر المتحمسين لهذه البعثة بدؤوا يرتابون في جدواها ، وظنوا أنهم تمسكوا بخرافة لا وجود لها . وعزم

الضابط أن يطلب مهلة ثلاثة أشهر إضافية ، فإذا لم تعثر الفرقاطة على طريدها توجهت إلى أوروبا وقد أدت واجبها .

وكان الضابط يأمر أن ترمى إلى البحر قطع اللحم ، لعلها تجذب رائحة الدم ذلك الحيوان البحري ، فكانت أسماك القرش أول المدعوين إلى هذه الوليمة ، وانتهت المدة الإضافية في الخامس من تشرين الأول ظهراً .

وقفت ذلك المساء على حاجز السفينة أتأمل الأمواج وقد أضاءها ضوء القمر ومعي كونسيل ، فقلت له :

– أضعنا ستة أشهر من وقتنا .

– كانت تكفيني لكي أصنف مجموعات سيدي .

– وأخشى أن يُستهزأ بنا بعد عودتنا .

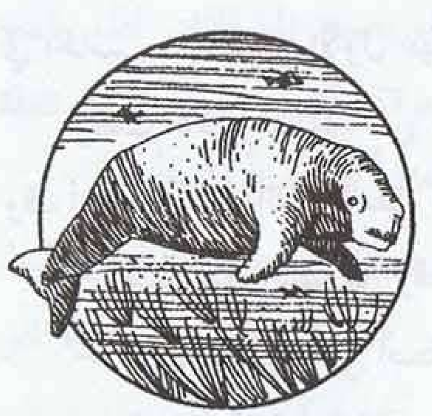
– لا .. لأن شهرة سيدي لا تسمح لأحد بالاستهزاء منه .

وما كاد كونسيل ينهي عبارته ، حتى ارتفع صوت نيدلاند يصيح :

– الوحش .. الوحش .. في الماء .

الفصل الثالث

حوت من فصيلة مجهولة



حين ارتفع صوت نيدلاند بالنداء اندفع الجميع إلى السطح من الضباط إلى الطباخ ، وتوقفت الفرقاطة ، ورأينا في العتمة العميقة ما أشار إليه نيدلاند ، كان على مسافة ثلاثمائة متر ، بيضوي الشكل ، يضيء البحر حوله ، ونوره يعشي الأبصار .

وصاح أحدهم :

– إنه يشعّ بالفوسفور !

فقلت له :

– لا .. إن هذه الظاهرة من طبيعة كهربائية .. انظروا إنه يتحرك .

وابتعد هذا الوحش الخرافي عن الفرقاطة مخلفاً وراءه أمواجاً مرتفعة .

وأمر الضابط :

– إلى الأمام بسرعة !

واتخذ كلٌّ موقعه . ولكن ما كادت الفرقاطة تتحرك لمطاردته حتى وصل إلى الأفق البعيد ، ثم ارتد إلى الفرقاطة وهاجمها بسرعة فائقة .

وصاح الضابط :

– اعكسوا الاتجاه .. إلى الوراء !

وما زال الحيوان يدنو منا بسرعة ضعف سرعتنا حتى توقف على خمسين متراً منا ، ثم اختفى ليظهر من الناحية الثانية من الفرقاطة كأنه غطس تحتها ، فكنّا نطارده وإذا به يطاردنا .

وسألني الضابط :

– هل أنت متأكد من فصيلة هذا الحيوان ؟

– إنه حوت أقرن من النوع الكهربائي .

– أظنه أضخم حيوان عرفَتْه البحار .. ولن أخاطر بالفرقاطة في الظلام .. الأفضل انتظار طلوع النهار لنقوم بالهجوم .

وظلَّ الجميع ساهرين على سطح الفرقاطة ، وجلست مع نيدلاند نتأمل هذا المخلوق الذي تهدهده الأمواج ، وفجأة اختفى الضوء المشع منه ، وسمعنا صفيراً عالياً يشق الفضاء ، وسأل الضابط نيدلاند :

– أليس هذا الصفير الذي تطلقه الحيتان حين تتنفس على سطح الماء ؟

– ولكنه يطلق صفيراً لا يطلقه سرب كامل من الحيتان .

طلع الفجر واستعدت الفرقاطة للهجوم ، ولكن الضباب الكثيف حجب عنا الرؤية ، ولم تستطع المناظير المقربة اختراقه ، فانتظرنا ونحن على أحرَّ من الجمر انقشاع الضباب ، وحوالي الساعة الثامنة ارتفع صوت نيدلاند :

– الوحش ... وراء السفينة ..

وتوجهت الأنظار إليه ، فإذا هو يشقّ الأمواج على مسافة نصف ميل منا ، ودنت الفرقاطة منه ، فقدّرتُ طوله بثمانين متراً تقريباً ، وكان ينفث الماء والبخار إلى ارتفاع أربعين متراً ، وتأكدت أنه حوت من فصيلة الثدييات ، ولكن لم أستطع تحديد صفاته بالضبط .

وصاح فراغوت :

– بأقصى سرعة !

وارتفعت أصوات البحارة بالهتاف والتهليل ، واندفعت الفرقاطة كالطوربيد ، ولم يتحرك الحيوان حتى أصبحت على مسافة مائة متر منه ، فابتعد محافظاً على هذه المسافة بيننا وبينه .

وصرخ الضابط :

– ضاعفوا السرعة .

ثم استدعى المهندس الميكانيكي وسأله :

– ما هي سرعتك الآن ؟

– ست وحدات ضغط جوي ونصف !

– أعط القوة القصوى .. عشر وحدات جوية .

وأطلقت السفينة الدخان الأسود وهي تنطلق بقوة عظيمة ، واستمرت المطاردة من الثامنة حتى الثانية عشرة . وقد تباطأ الحيوان عدّة مرات ، ونيدلاند يصرخ ورمحه بيده :

– أمسكناه .. أمسكناه .

فكان الحيوان يدور حول الفرقاطة بسرعة هائلة ثم يستأنف اندفاعه أمامها ، وأدرك الضابط أن الفرقاطة غير قادرة على اللحاق به فهتف :

– خمسمائة دولار لمن يثقب هذا الحيوان الجهنمي .

فوقف أحد رماة المدفعية القدامى وراء المدفع وصوَّبه بدقة وأناة ، ثم أطلق القنبلة فأصاب الحيوان إصابة مباشرة ، ولكنها انزلقت عن ظهره وغاصت في الماء .

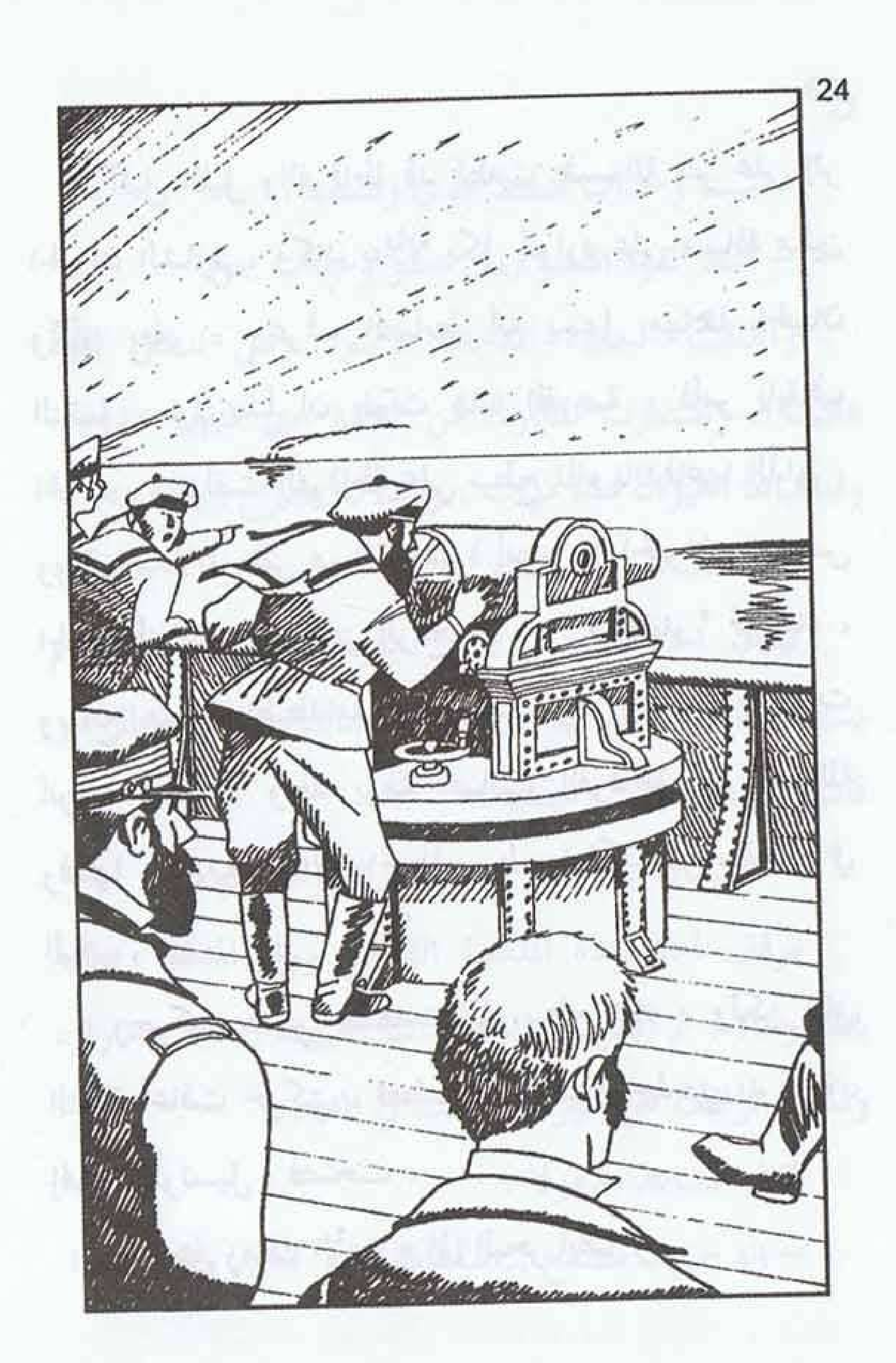
فقال الضابط مذهولاً :

– إنه حيوان مصفح .. سأطارده حتى تنفجر المحركات !

وأقبل الليل والفرقاطة قد قطعت خمسمائة متر على إثر الحيوان الشارد ، وكان يتلألأ بكل أنواره على مسافة ميلين وكأنه يغفو ، وعرف الضابط أنه يسهل مهاجمة الحيتان النائمة . ولم يشأ أن يفوّت هذه الفرصة ، فأمر بإيقاف المحرك ، وانزلقت الفرقاطة على سطح الماء باندفاعها الذاتيّ ، ووقف نيدلاند على مسافة عشرة أمتار من الحيوان ، وحبس الجميع أنفاسهم ، واهتز الرمح في يد " نيدلاند " ثم رماه ، وسُمع صوت اصطدامه بجسم صلب له رنين ، وانطفأت أنواره فجأة ، وبعد برهة أصابت الفرقاطة ضربة هائلة رفعتها ، واندفعت الأمواج إلى سطحها فكنسته وسقطتُ في البحر .

وحركت قدميّ فصعدت إلى سطح الماء ، ولكن ثيابي الثقيلة أعاقت حركتي ، فغطست .. حينئذ جذبتني يد قوية ، إنها يد كونسيل ، فصحت :

– وهل رمتك الأمواج إلى البحر أيضاً ؟



– لا يا سيدي .. ولكن تبعت سيدي لأقدّم له خدماتي .

– والفرقاطة ؟

– حين قفزت سمعت البحارة يصرخون أن المروحة والدفة قد تحطمتا .

– ضعنا إذن !

فقال كونسيل بصوت رزين :

– هل يسمح لي سيدي بأن أنزع عنه ثيابه ، ويقدم لي الخدمة نفسها لكي نسبح على راحتنا .

فأعاد هدوؤه الثقة إلى نفسي .

ظهر القمر في السماء حوالي الساعة الواحدة ، وسقط نوره على الفرقاطة الجاثمة في الأفق . واشتد بي التعب ولم أعد قادراً على المقاومة ، وطلبت من كونسيل أن يتخلى عني فأبى ، ورفع صوته ينادي :

– النجدة .. النجدة !

وإذا صوت يجاوبه ، صوت نيدلاند :

– اقتربوا مني .. هنا الأمان .

وسبحت إليه عدة أمتار يتبعني كونسيل ، وسألته :

– ماذا تعني ؟

– إني متمسك بمكافأتي .. بل واقف فوقها .

ووقفت بجانبه كأننا فوق جزيرة وسط الماء ، وقال نيد :

– أتدري لِمَ لَمْ يخترق رمحي جلد الحيوان ؟ لأنه مصنوع من الفولاذ ، وأنت واقف فوقه الآن .

ومددت يدي أتلمس الجسم الذي استقرت عليه قدماي ، فإذا هو صفائح حديد تربطها الحزقات ، وزال كل شك عندي ، إننا فوق غواصة تحركها آلات ويقودها طاقم .

فصحت فرحاً :

– لقد نجونا .. إذن .

فتمتم نيدلاند :

– ربما .. من يدري ؟

كانت الغواصة تتحرك ببطء ونحن متمسكون بعضنا ببعض ، ثم وقعت يد نيدلاند على حلقة كبيرة ، فقبض عليها

وشدنا إليه ، وقضينا الليل كله نرتعد من البرد والخوف ، فماذا نفعل إن غطست الغواصة ؟

وطلع الصباح ، وما كدت أتفحص المكان الذي وقفنا فوقه حتى بدأ الماء يفور من حولنا وكأن الغواصة تتهيأ للغطس ، فجعل نيدلاند يخبط السطح بقدمه وهو يصيح :

– افتحوا .. افتحوا ..

وكان صوت المحركات يطغى على صوته ، ثم توقفت .

وسمعنا صوت معدن يتحرك ، وانفتح غطاء من سطح الغواصة وظهر ثمانية رجال قادونا إلى الداخل .

الفصل الرابع

السائر في العنصر السائل

وانغلق الغطاء فوقنا على ظلام دامس ، وأحسست تحت قدميّ درجات من الحديد ، ثم فتح باب وانغلق وراءنا بضوضاء صاخبة ، وصاح نيدلاند :

– يا له من استقبال .. سأضرب أول من يجرؤ :

فقاطعته قائلاً :

– هدئ نفسك يا نيد ! فوَضْعُنا لا يسمح لنا باستعمال العنف .

ولبثنا في العتمة حوالي نصف ساعة ، ثم أضاء النور سجننا ، ولم يكن في الحجرة سوى طاولة وخمسة مقاعد ولا منفذ في الجدران .

وكان النور إعلاناً بزيارة أحد ما ، فقد سمعنا صوت أقدام ، ثم انفتح الباب ودخل رجلان . الأول قصير القامة مفتول العضلات شعره كثيف أسود ، وتدل نظراته على أنه من منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وأما الثاني فقد كان وسيماً طويل القامة ، يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، عالي الجبين أشمَّ الأنف ، له نظرات هادئة ، وتدل هيئته على علو النفس وكبريائها .

ويرتدي الرجلان ثياباً بسيطة من نسيج خاص ، وفي قدميهما حذاء مصنوع من جلد الفقمة .

فتوجه الرجل الوسيم إلى الآخر يخاطبه بلغة لم أفهمها ، فأجابه بعبارات قصيرة ، وتكلمت معهما بالفرنسية وقلت إنني لا أفهم لغتهما ، فلم يظهر عليهما فَهْمُ ما أقول .

وقال كونسيل :

– ليحك لهما سيدي ما حدث معنا .

فرويت بإسهاب تفاصيل مغامرتنا ، فلم ينطقا بحرف ، فاتجهت إلى نيد وطلبت منه أن يرويها بالإنكليزية . فعرض

الرمّاح تفاصيل المغامرة بكثير من الإسهاب وعبّر عنها بالحركات ، وختمها بأن أشار إلى فمه دلالة على جوعه وعطشه ، ولكنهما لم يتأثرا به ، فقال كونسيل :

– هل يسمح لي سيدي بحكايتها بالألمانية ؟

– كيف ؟ وهل تعرف الألمانية ؟

– إني فلمنكي كما تعلم .. ونحن جيران الألمان .

وروى كونيسل المغامرة للمرة الثالثة دون أن ينجح في إفهامهما شيئاً ، فقلت لنفسي لعلهما يفهمان اللاتينية . ورويت ما حدث بما بقي في ذاكرتي من اللاتينية ، فتبادل الرجلان الكلام فيما بينهما ثم انصرفا دون أن يهتما بنا وبثقافتنا اللغوية .

واهتاج نيدلاند وهو يقول :

– نكلمهما بأربع لغات ، ولا يكلفان أنفسهما عناء الجواب ؟ لقد أفهمتهم باللغة العالمية لغة الإشارات ، أننا جائعون فكيف لا يفهمون ؟

بعد لحظات دخل خادم يحمل إلينا ملابس من ذلك القماش المجهول وأحذية ، وما كدنا نرتديها حتى دخل خادم آخر يحمل إلينا مائدة عامرة بالطعام .

تذوقت الأطعمة فوجدتها لذيذة ، لعلها من الأسماك أو بعض النباتات ، ولكنها جديرة بمطعم من الدرجة الأولى ، ونظرت إلى الصحون فإذا فيها هذه الكتابة :

السائر في العنصر السائل (ن) .

ولعل الحرف (نون) هو اختصار لاسم القبطان أو ضابط هذه الغواصة . والتهمنا هذه الوجبة اللذيذة وقد أحسسنا بالطمأنينة لنوايا مضيفينا ، وداعب النعاس جفوننا بعد هذا الطعام اللذيذ ، وتَعَبِ الليلة الماضية التي واجهنا فيها الهلاك . ولم تمر دقائق حتى كان صاحباي يغطان في نوم عميق ، وشعرت بأن الغواصة تغطس تحت الماء وانطبقت أجفاني رغماً عني .

استيقظت قبلهما وأنا أحسُّ بالراحة ، وكان الخادم قد حمل الصحون أثناء غفوتنا ، وشعرت بالقلق لاستمرار سجننا

وقد تناقص الأوكسجين في الغرفة ، وتساءلت عن طريقتهم في إرسال الأوكسجين ، هل يستخدمون الوسائل الكيماوية ؟ أم يخزّنون الهواء المضغوط ؟ أم أنهم يصعدون إلى سطح الماء ؟

كنت غارقاً في تأملاتي حين هبّت عليّ نسمات منعشة من الهواء البحري الرطب ، وتأكد لي أنهم يستخدمون أوفر الوسائل لاستنشاق الهواء ، فيصعدون إلى سطح الماء ، وأنعشتْ هذه النسمات صاحبيّ وأيقظتهما ، وسألني كونسيل :

– هل نام سيدي جيداً ؟

– نعم .. وأنت يا نيدلاند ؟

– كنت مضطرباً يا سيد (أرونكس) ، ولكن كم الساعة الآن ؟ ألم يحن وقت العشاء ؟

– ربما حان وقت الإفطار .

– العشاء أو الإفطار ، إن معدتي تطالب بهما معاً ، وهذا الخادم لا يأتي !

وقال كونسيل :

– سننتظر أن يُقْرع الجرس .. هكذا يفعلون في الأماكن الراقية .

فاعترض نيدلاند وقال :

– إلى متى نظل محبوسين في علبة السردين هذه ؟ ما رأيك يا أستاذ ؟

فقلت :

– لا أدري ، ولكن الذي أعلمه أننا كشفنا سراً لا ينبغي لنا الاطلاع عليه ، وهو أغلى على أصحابه من أرواحنا نحن الثلاثة ، فمصيرنا مظلم ، فلننتظر لأنه ليس بيدنا شيء .

– ولا نفعل شيئاً ؟

– وماذا سنفعل يا نيد ؟

– أن نهرب .

– الهرب من سجن عادي أمر عسير ، فما بالك بسجن في غواصة ؟

وبعد صمت قصير قال كونسيل :

– الأفضل أن نظلّ في السجن ، فذلك خير من أن نكون فوقه أو تحته .

فأجابه نيدلاند :

– ولم لا نطردهم منه ؟

فقلت مندهشاً :

– وهل نفكر بالاستيلاء على الغواصة ؟

– ولِمَ لا يا أستاذ أرونكس ؟ وهل يعجز فرنسيان وكندي على السيطرة على عشرين بحاراً ؟ .

وكانت المناقشة مستحيلة مع هذا الرماح الغاضب ، فقلت له :

– لا يمكننا الاستيلاء عليها إلا بالحيلة ، لذلك أطلب منك الهدوء والسيطرة على أعصابك حتى لا ينكشف أمرنا .

– أعدك بهذا يا أستاذ ، فلن أنطق بكلمة واحدة ولن أقوم بحركة حتى لو كان الطعام مخالفاً لذوقي .

وانصرف كلٌّ منا إلى أفكاره ، ولبث كونسيل هادئاً ، ولكن نيدلاند يهمس لنفسه بصوت خافت ، ثم ينهض

فيتمشى كالنمر الحبيس ، وبعد قليل بدأ يضرب الحائط بقبضة يده ويركله بقدمه وينادي الخادم وقد قرصه الجوع .

بعد دقائق دخل الخادم ، فاندفع إليه نيدلاند وأمسك بخناقه ، فمنعه كونسيل عنه ، ونهضت لمساعدته وإذا صوت ينطق بفرنسية طليقة قائلاً :

– اهدأ يا نيدلاند ، وأنت يا سيدي الأستاذ أرجو أن تصغي إليَّ .

ولدهشة نيدلاند أطلق الخادم ونظر إلى القبطان الذي يخاطبه ، وأشار هذا إلى الخادم بالخروج فمضى ، ثم التفت إلينا قائلاً بصوت رزين وحازم :

– أيها السادة .. إني أتكلم الفرنسية والإنكليزية والألمانية واللاتينية ، وإذا كنت لم أجبكم وتأخرت محادثتي إلى هذه الزيارة ، فذلك لكي أعلمكم بأنكم دخلتم حياة إنسان قطع صلاته بالمجتمع .

فقلت :

– غصباً عنا .

– كيف غصباً عنكم ؟ فهل كنتم على متن (أبراهام لنكولن) غصباً عنكم ؟ وهل قَبَلَتْني الفرقاطة غصباً عنكم ؟ وهل صوَّب إليّ السيد نيدلاند رمحه غصباً عنكم ؟

فقلت له :

– لعلك تجهل يا سيدي ما أثارته غواصتك من الذعر في أوروبا وأميركا ، وقد ظنوها إحدى الكائنات العملاقة التي تهدد أمن البحار .

فأجابه الرجل بابتسامة :

– وهل تنكر أن الفرقاطة كانت ستهاجمنا إذا عرفت أنها غواصة وليست حيواناً متوحشاً ؟

وكان سكوتي تأكيداً لكلامه ، فاستأنف قائلاً :

– لي الحق بأن أعاملكم كأعداء إذن ! فأترككم على ظهر الغواصة ثم أغطس في الماء ، وأنساكم إلى الأبد .

فقلت :

– نعم .. هذا حق الرجل المتوحش ، وأما الرجل المتمدن فلا يفعلها .

فالتمعت عيناه بالغضب وقال :

– يا سيدي الأستاذ ، لست ما تدعوه بالرجل المتمدن ، فقد وضعت نفسي خارج القوانين البشرية ، وأرجوك ألا تشير إلى هذا المعنى مستقبلاً .

ثم عاد إليه هدوؤه وقال : بعد تفكير طويل قررت أن أقوم بعمل إنساني يتطابق مع مصلحتي ، وذلك بأن أترككم تتجولون أحراراً حرية نسبية طبعاً ، ولكن على شرط واحد .

– ما هو يا سيدي ؟

– قد تجبرنا بعض الأحداث على إبقائكم في غرفكم بضع ساعات ، أو بضعة أيام لئلا تطلعوا على ما لا ينبغي لكم ..

– نقبل هذا الشرط .. ولكنك ذكرت أننا سنظل أحراراً على متن الغواصة ، ماذا تقصد بالحرية هنا ؟

– حرية التجوال والملاحظة ورؤية كل شيء يحدث هنا .

– هل معنى ذلك أننا لن نعود إلى أهلنا وبلدنا ؟

– نعم يا سيدي !

فارتفع صوتي وأنا أقول : هذه قسوة .. هذا استغلال .

– لا .. بل هو التسامح والمغفرة ! لقد أنقذت حياتكم بعد أن هاجمتم غواصتي واطلعتم على سر وجودي ، وتريدني أن أدعكم تعودون إلى الأرض التي هجرتها ؟ هذا لا يكون !

– إنك تخيرنا يا سيدي بين الحياة والموت .

– نعم .. بكل بساطة .. ولكني أقول لك يا سيدي الأستاذ إني مطلع على مؤلفاتك حول البحار .. ولعلك تشاركني أبحاثي في جولتي الجديدة حول العالم ، وقد تكون الأخيرة ، وسوف تدهش لما لم يره رجل مثلك من المتشبثين باليابسة .

– ولكنْ لدي سؤال أخير .

– تفضل .

– كيف أدعوك ؟

– اسمي القبطان (نيمو) وأنت وصاحباك المسافرون على متن الغواصة (نوتيلوس) .

الفصل الخامس

النوتيلوس

نادى القبطان (نيمو) فظهر الخادم ، ثم التفت إلى نيدلاند وكونسيل قائلاً :

– إن الوجبة تنتظركما في مقصورتكما ، تفضلا بالذهاب مع هذا الرجل .

فقال نيدلاند :

– بكل سرور .

لقد استمرّ سجننا ثلاثين ساعة . ثم خاطبني القبطان قائلاً :

– اسمح لي يا أستاذ أرونكس .. إن الغداء بانتظارنا .

وسبقني إلى قاعة فسيحة محاطة بالخزائن الزجاجية المضاءة بأنوار ساطعة وقال :

– تفضل بالجلوس .. وكل كمن يموت من الجوع .

وتذوقت الأطعمة فعرفت أن مصدرها بحري ، وتولى القبطان (نيمو) الإجابة عن الأسئلة التي تدور بخاطري فقال :

– إن كل هذه المآكل مصدرها البحر ، إن ما تظنه شريحة لحم بقر هو كبد الدلفين ، وهذه شريحة من لحم السلحفاة ، وهذه قشدة من حليب الحوت ، وهذه المربيات من النباتات البحرية ، حتى ثيابنا مصنوعة من تلك النباتات .

إن البحر يا سيدي الأستاذ نبع لا ينضب وثروة لا انتهاء لها ، حتى العطر الذي تجده في مقصورتك ، والريشة التي تكتب بها مصدرها شوارب الحوت ، كل شيء يأتي من البحر وإليه يعود ذات يوم .

– هل تحب البحر يا قبطان ؟

– نعم أحبه ، فالبحر كل شيء ، إنه خزان الطبيعة الشاسع حيث الحياة تمر وهو خارج عن سيطرة البشر ، ها هنا الاستقلال وهنا أكون حراً .

وصمت القبطان نيمو كأنه ندم لانفعاله وإفصاحه عن مكنون نفسه ، ثم عاد إليه هدوؤه فقال :

– والآن يا سيدي الأستاذ ، إذا رغبت في زيارة النوتيلوس فإني في خدمتك .

ونهض ففتح باباً مضاعفاً خَلْفَه ، فدخلنا غرفة مساوية في مساحتها الغرفة الأولى ، إنها المكتبة . كانت الجدران عامرة بالمجلدات ، وقد حوت مكتبته مؤلفات الأقدمين والمحدثين من هوميروس إلى فيكتور هيغو ، ولكن العلوم تشغل مكانة هامة فيها ، والظاهر أن القبطان يهتم بدراسة الميكانيك والمقذوفات والهيدروليك وعلم طبقات الأرض والفلك والتاريخ الطبيعي ، وعلى الطاولة عدد من الجرائد والمنشورات الصفراء . فقلت له :



– لا أكاد أصدق عيني يا سيدي ، إن لديك ستة أو سبعة آلاف مجلد .

– بل اثنا عشر مجلداً يا أستاذ ، وهي الصلة الوحيدة التي ما تزال تربطني بالأرض ، وهي تحت تصرفك .

ثم فتح القبطان نيمو باباً في صدر المكتبة ، فدخلنا قاعة واسعة شديدة الإضاءة وهي متحف حقيقي قد احتوى كل عجائب المخلوقات والفنون ، وقد علقت على الجدران لوحات لمشاهير الرسامين : رفائيل ، روبنس ، دلاكروا ، أنجرس . ورأيت أرغناً كبيراً في صدر القاعة وبجانبه نوتات لموسيقا : موزار ، بيتهوفن ، فاغنر ، غونود . وكان القبطان نيمو غارقاً في تفكير عميق ، فاحترمت صمته وتابعت زيارتي .

وسط القاعة نافورة يتصاعد ماؤها من صَدَفَةٍ كبيرة ، وتحيط بها مجموعة من الأصداف النادرة ، وقد صنفت وكتبت عليها أسماؤها .

وحول القاعة واجهات زجاجية تضم أنواعاً كثيرة من اللؤلؤ ، بعضها كبير بحجم بيضة الحمام ، وتتوزع ألوانها بين الوردي والأخضر والأصفر والأزرق والأسود ، ويعجز الخيال عن تقدير أثمانها . وساءلت نفسي كيف استطاع القبطان نيمو الحصول على المال لشرائها ؟

اقترب مني القبطان وقال :

– أراك تتفحص مجموعاتي يا أستاذ وهي جديرة بأن تجذب انتباه عالم الطبيعة ، ولكنّ لها سحراً خاصاً بالنسبة إليّ لأني جمعتها بنفسي .

– هذه مجموعات نادرة لا يحتويها متحف في العالم ، ولكن الأعجوبة التي لم أطلع عليها بعد هي النوتيلوس ، فكيف تسير ؟ وما الطاقة التي تسيِّرها ؟

– ستزور النوتيلوس بالتفصيل ، ولكن قبل ذلك سأريك مقصورتك الخاصة بك .

وسرت وراء القبطان نيمو ، فدخلنا غرفة واسعة أنيقة ، ثم فتح باباً بجانبها وقال :

– إن غرفتك جانب غرفتي ، وهي ملاصقة للقاعة التي غادرناها الآن .

ولم يكن في غرفة القبطان نيمو سوى ما يفي بالحاجة ، سرير من الحديد ، وطاولة للكتابة وكرسيان .

وطلب مني الجلوس وهو يقول :

– إن الطاقة التي أستخدمها قوية سريعة وتفي بكل الاحتياجات ، فهي تضيء وتدفئ ، وتحرك الآلات ، وهذه الطاقة هي : الكهرباء .

فقلت له :

– ولكن الطاقة الحركية للكهرباء ضعيفة ، فهل تمنح كل هذه القوة للنوتيلوس ؟

– إن الكهرباء التي أستخدمها تختلف عن كهرباء الأرض ، فأنا أستمدها من البحر .

– من البحر ؟

– نعم ، كلها من البحر ، فأنت تعلم أن ماء البحر مشع بكلورات الصوديوم ، والبطاريات التي أستخدمها مزيج من

الزئبق والصوديوم . لأن الزئبق لا يفنى أبداً على العكس من الزنك ، والطاقة المتولدة عن الصوديوم ضعف الناتجة عن الزنك .

– ولكنك لا تستخلص الصوديوم إلا بعد هَدْر طاقةٍ أكثر مما تستخلصه .

– لا .. لأني أستخلص الصوديوم بواسطة فحم البحر .

– والهواء الذي تتنفسه ؟

– إني أصعد إلى السطح لأتزود بالهواء ، ولكن إذا اقتضى الأمر فإني أخزنه بالضغط في خزانات خاصة .

فشددت على يده وأنا أقول :

– إن هذه الكهرباء سوف تعوض الريح والبخار .

– سنَزور الآن الجانب الخلفي من النوتيلوس .

ومشى بي إلى الممرات وسط الغواصة ، وتوقفنا أمام سلم يؤدي إلى الأعلى ، وسألته عنه فقال :

– إنه السلم الذي يرقى إلى حجرة القارب .

– وهل لديك قارب تستعمله على سطح الماء ؟

– حين أريد الخروج أفتح باب السطح وأرمي القارب الذي ينفخ بالهواء المضغوط ، واستعمله إما بالمجاذيف أو بالشراع .

ثم مررنا بحجرتَيْ نيدلاند وكونسيل ، فوجدتهما قد أنهيا طعامهما . وفتح القبطان باب المطبخ فإذا هو مجهز تجهيزاً تاماً بالمعدات الكهربائية ، وبجانبه الحمام المزود بالماء الساخن ، ولم أستطع رؤية طاقم الغواصة فقد أُغلق الباب عليهم .

ثم مضينا إلى قاعة الآلات فكان طولها عشرين متراً منقسمة إلى قسمين : يحتوي الأول العناصر المنتجة للكهرباء ، ويحتوي الثاني الآلات المحركة للعنفة ، وقال لي القبطان نيمو :

– هذه الطاقة الكهربائية الناتجة هنا تُدفع إلى الخلف حيث الروافع والمسنّنات التي تحولها إلى طاقة حركية تدير العنفة ، ومحور العنفة ستة أمتار يدور مائة وعشرين دورة في الثانية .

– وما هي السرعة الكلية ؟

– ثمانون كيلو متراً في الساعة .

فقلت له :

– إني معجب بنتائج هذه الأبحاث ، ولكن كيف تناور بالغواصة ؟ هل هذا تطفل مني ؟

– لا يا سيدي الأستاذ ، لأنك لن تغادر الغواصة أبداً ، تفضل معي إلى قاعة الجلوس وسوف أشرح لك كل شيء .

جلست في كرسي مريح والقبطان نيمو قد بسط على الطاولة مخططاً للغواصة نوتيلوس وقال :

– إن هيكل الغواصة على شكل مكوك ، طوله الإجمالي سبعون متراً ، وأقصى عرض له ثمانية أمتار ، وهو مصنوع من الحديد على شكل (T) فيقاوم كما لو كان صلداً ، ولا يطفو منه سوى واحد من عشرة ، فإذا ملأتُ هذا العُشَر غاص ، لذلك جهزت الغواصة بخزانات تساوي هذا العشر ، فإذا أردت أن تطفو على السطح فيجب أن نفرغها .

فقلت له :

– ولكنك حين تكون على عمق ألف متر يلزمك قوة ضغط قدرها مائة كيلو غرام للمتر المكعب .

– لا أستخدم الخزانات إلا للأعماق المتوسطة ، وأما الأعماق التي تتجاوز الخمسة آلاف أو العشرة آلاف متر فلها وسيلة أخرى .

– وكيف يستطيع الطاقم مراقبة البحر؟

– لدينا قمرة من الكريستال سمكها في المركز واحد وعشرون سنتيمتراً ومقاومتها هائلة . والأضواء الكاشفة تنير ما حولها .

– آه .. عرفت الآن مصدر النور الذي يظهر في البحر على مسافة بعيدة ، يا لها من غواصة رائعة !

– نعم يا أستاذ .. إني أثق بها ثقة عمياء ، فأنا قبطانها وصانعها ومهندسها .

– هل أنت مهندس يا قبطان نيمو ؟

– نعم ، وقد تلقيت دراستي في لندن وباريس ونيويورك قبل أن أعتزل الناس .

– ولكن كيف استطعت صنع هذه الغواصة دون أن تلفت الأنظار إليك ؟

- أقمت الورشة في إحدى الجزر المهجورة ، ثم كلفت عدداً من المهندسين في أنحاء العالم بصنع القطع متفرقة ، ثم قمت مع رفاقي بتجميعها ، وأتلفت مخططاتها .

- لقد كلفتك ثروة طائلة .

- حوالي الخمسة ملايين فرنك بما فيها من تحف فنية .

- أنت رجل ثري إذن ؟

- ثري طائل الثراء .

الفصل السادس

رسالة دعوة

نظرت إلى هذا الرجل العجيب وأنا أتساءل : هل هو صادق ؟ وهل يحسبني غرًّا جاهلاً فيكلمني بهذه الطريقة ؟ سأعرف حقيقته مستقبلاً .

قال القبطان نيمو :

- سنطفو الآن لتحديد موقعنا .

وضغط على زر كهربائي ، وراقب مختلف الأجهزة ، وبدأت المضخات في طرد الهواء المضغوط ، وبدأت عقارب الساعات تشير إلى الضغط الذي تتحمله النوتيلوس وهي في سبيلها إلى الصعود ، ثم توقفت .

فقال القبطان :

- لقد وصلنا .

وتبعته إلى المنصة فكانت السماء صافية حولنا ، والمحيط الهادي على مد النظر . وتناول القبطان السُدْسية [1] ، وبدأ يقيس ارتفاع الشمس .

وهبطنا إلى القاعة فقال لي :

– نحن الآن على مسافة ثلاثمائة ميل من ساحل اليابان ، وفي اليوم الثامن من تشرين الأول تبدأ رحلتنا تحت البحر ، وهذه الخرائط التي تستطيع بها تتبع طريقنا ، والآن يا سيدي الأستاذ سأتركك لدراستك .

وجلست أفكر في هذا الرجل العجيب الذي استضافني ولكنه لم يصافحني حتى الآن ، فمن أثار لديه هذه الكراهية كلها تجاه الإنسانية ؟

ودخل نيدلاند وكونسيل إلى القاعة ، فصاح نيد وهو يرى هذه الكنوز :

– هل نحن في متحف الكيك ؟

---

1 – السُدْسية : جهاز لقياس ارتفاع الشمس والأجرام السماوية .

فأجابه كونسيل :

– بل في القصر الكبير .

فقلت لهما :

– بل أنتما في النوتيلوس على عمق خمسين متراً تحت البحر .

وسألني نيدلاند :

– كم من الرجال على متن الغواصة ؟ عشرة ، خمسون ، مائة ؟

– لا أدري . ولكن أنصحك بأن تتخلى عن فكرة السيطرة على النوتيلوس أو الهرب منها ، فاصبر وتمتع بالفرجة عليها لأنها عمل في صَنَعةُ نابغةٌ .

– على أي شيء أتفرج ؟ إنها علبة سردين ، ولا نعرف أين نذهب فيها ؟

في تلك اللحظة أطفئت الأنوار وسمعنا صوت صفائح تنزلق ، ثم بدا لنا المحيط من وراء النوافذ الزجاجية وقد أنارته الأضواء ، وكان مشهداً لا يوصف لروعته ، فقال كونسيل :

– هذا يستحق الفرجة !

ولبثنا ساعتين نتأمل هذه الأسماك الجميلة تمر أمامنا بأنواعها وألوانها ، بعضها نعرفه ونذكر فصائله ، وبعضها الآخر نراه للمرّة الأولى على سَعَة اطلاعنا .

وفجأة أضيئت القاعة وانسدلت الصفائح واختفى المشهد ، وتوقعت قدوم القبطان نيمو ولكنه لم يحضر ، وكانت الساعة الكهربائية تشير إلى الخامسة .

رجع نيدلاند وكونسيل إلى مقصورهما ، وعدت إلى غرفتي فطالعت بعض الكتب ، ثم تأملت قليلاً وتمددت على فراشي المحشو بالنباتات البحرية ، على حين كانت النوتيلوس تمضي تحت مياه المحيط الهادي .

ومن الغد استيقظت بعد رقادٍ دامَ عشر ساعات ، فجاء كونسيل للسؤال عن صحتي كعادته ، ولكني كنت مشغولاً بغياب القبطان نيمو وأتوقع زيارته اليوم .

ارتديت ثيابي ومضيت إلى القاعة الكبرى حيث بدأت دراسة المجموعات البحرية والنباتات التي احتفظت بكل

نضارتها . ومرّ النهار على هذه الشاكلة ومؤشرات الغواصة تدل على الاتجاه والسرعة والعمق نفسها دون تبديل .

صباح الغد لم يظهر القبطان نيمو ولا طاقمه فجلست أدوّن مذكراتي .

في اليوم الثاني يوم 11 تشرين الأول صباحاً هبت نسمات عليلة فعلمت أن الغواصة قد طفت على سطح الماء ، فصعدت إلى المنصة أتنشق الهواء ، وكان الجو رائعاً والشمس مشرقة . وسمعت بعد قليل خطوات على السلم ، وصعد مساعد القبطان فرفع منظاراً مقرباً إلى عينيه وبدأ يتأمل الآفاق من حوله ، ثم قال هذه الجملة التي حفظتها ولم أفهم معناها ، لأني أسمعها كل صباح :

" نوترون رسبوك لورني فيرش "

ثم هبط المساعد فظننت أن الغواصة ستغوص ، ولكنها ظلت طافية على السطح ، وكان المساعد يكرر عمله كل صباح ، وحسبت أني لن أرى القبطان نيمو أبداً .

في السادس عشر من تشرين الأول كنت بصحبة نيدلاند وكونسيل حين وجدت رسالة على طاولتي وفيها العبارات التالية :

" الأستاذ أرونكس على متن النوتيلوس .

16 تشرين الأول 1867

إن القبطان نيمو يدعو الأستاذ أرونكس إلى جولة صيد صباح الغد في غابات جزيرة كريسبو ، وآمل أن يشارك فيها ، ويستطيع اصطحاب رفيقيه إذا شاء .

القبطان نيمو ضابط النوتيلوس "

وصاح نيدلاند : سيهبط إلى اليابسة إذن ؟

– هذا واضح من الرسالة ، ولكن أين تقع هذه الجزيرة ؟

ووجدت على الخريطة جزيرة صغيرة شمال المحيط الهادي على مسافة 1800 ميل من نقطة انطلاقنا .

فقال كونسيل : حين نطأ الأرض ، سنرى ما نفعله ، ولا بأس بتنويع طعامنا اليومي .

ارتديت ثيابي صباح الغد واتجهت إلى القاعة الكبرى ، فوجدت القبطان نيمو بانتظاري ، فحيّاني وسألني إن كنا سنصحبه دون أن يشير إلى غيابه ، فأجبته بأنا جاهزون لمرافقته ، ثم قلت له :

– هل أطرح عليك سؤالاً ؟

– تفضل يا سيدي الأستاذ .

– هل تملك غابات في جزيرة كريسبو وأنت الذي قطعت علاقتك باليابسة ؟

– إنها غابات بحرية .

– وهل نتجول فيها على أقدامنا ؟

– طبعاً ... وبنادقنا بيدنا .

فقلت في نفسي : إن هذا الرجل قد فقد عقله .

الفصل السابع

الغابة البحرية

تناولنا الطعام ساكتين ، ثم قال لي القبطان نيمو :

– لقد وعدتك بجولة بحرية ، ولكني لم أعدك بتناول الطعام في أحد المطاعم الفخمة .

فقلت له :

– وكيف نتجول في هذه الغابة ؟

– في الطرائق القديمة المعروفة تستخدم بدلة غوص موصولة بأنابيب مطاطية تضخ الهواء ، فلا تسمح بالابتعاد كثيراً وأما أنا فأستخدم بدلة تخيلها اثنان من بلدك فرنسا ، وفيها الهواء المضغوط الكافي لمدة تسع ساعات .

– حسناً .. والإضاءة ؟

– نستعمل جهاز (ريسهمكروف) الذي يحتوي على بطارية الصوديوم وصفائحها من غاز الفحم ، وهذا الغاز يضيء حين يشتغل الجهاز .

– إنك تجيب عن أسئلتي بطريقة علمية مقنعة ، وماذا عن بنادق الصيد ؟ وما هو البارود الذي تستعمله ؟

– لا أستخدم بنادق البارود ، بل بنادق الهواء المضغوط .

– والرصاص ؟ إن فاعليته تزول حين يخترق الماء .

– على العكس ، إن الرصاص صاعق وما إن يمس الحيوان حتى يصرعه .

– وكيف ؟

– إنه رصاص من الزجاج المكهرب المغطى بالفولاذ ، فإذا أصابته صدمة أفرغ شحنته الكهربائية من التوتر العالي .

فقلت وأنا أنهض معجباً باختراعه :

– لن أجادلك بعد الآن ، وإني ذاهب معك حيث تريد .

ومضى بي القبطان نيمو إلى مؤخرة الغواصة وتبعنا نيدلاند وكونسيل .

دخلنا حجرة فيها عشر بدلات غوص ، فأدرك نيدلاند أنه لن يصيد في غابة برية ، فامتنع عن الذهاب . فجاء رجل وساعدني على ارتداء البدلة المطاطية ووضع على رأسي الخوذة الفولاذية المزودة بفتحات ثلاث تتيح لي الرؤية من كل الجهات .

وسأل القبطان كونسيل :

– وأنت هل تذهب أم لا ؟

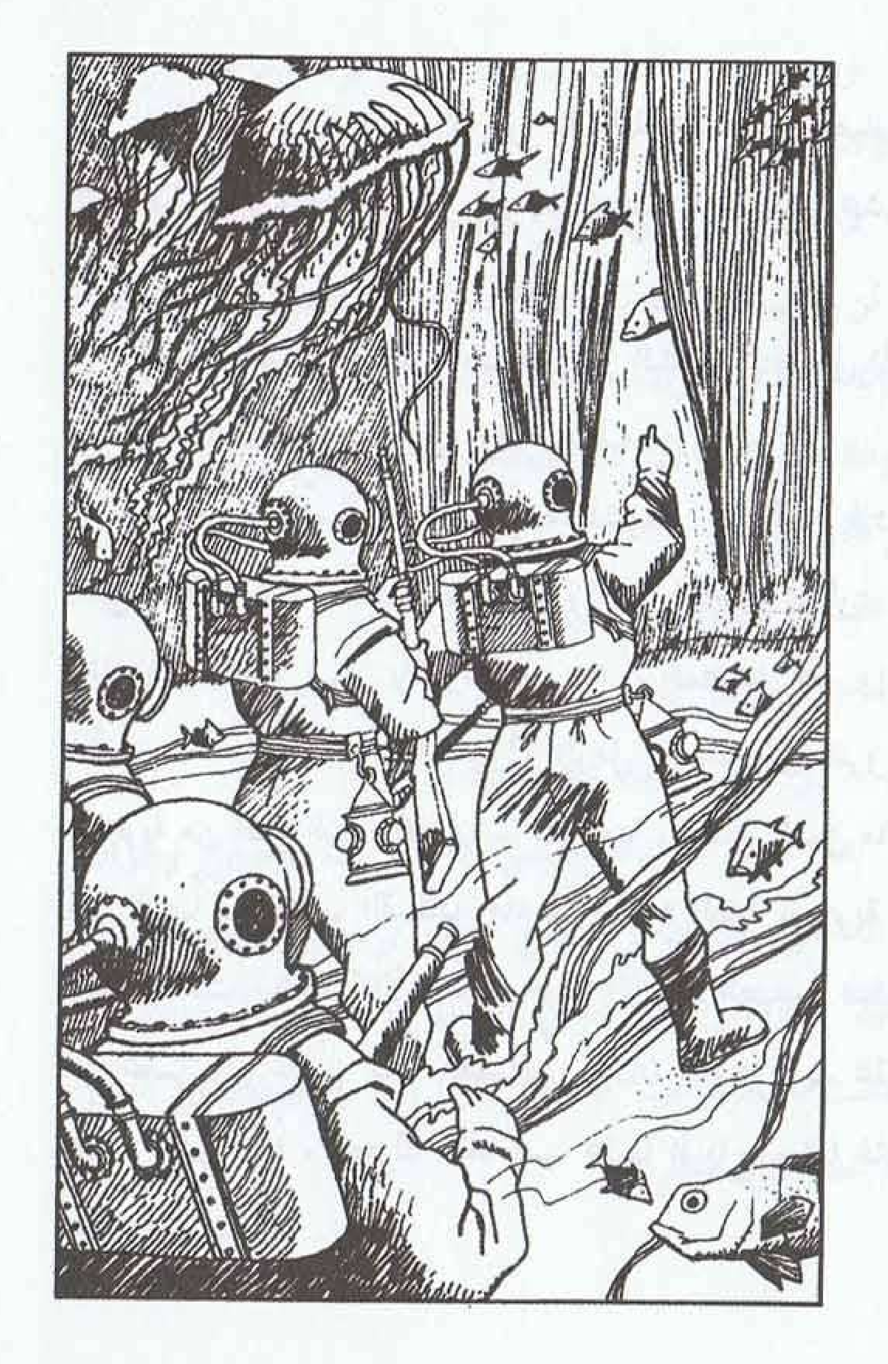
– إني أمضي حيث يمضي سيدي .

بعد دقائق وجدت نفسي داخل بدلة الغوص وخزان الهواء على ظهري والمصباح معلق بزناري وبيدي بندقية الصيد ، ولكن يثقل قدميّ الحذاء ذو النعل الرصاصي . وأُغْلقت الحجرة جيداً ثم تدفق إليها الماء ، وصعدنا إلى أعلى وقد خف ثقل حذائي .

بدأنا نتجول على الأرض الرملية الناعمة ومصابيح الغواصة تضيء ما حولنا ، ورأيت سطح الماء على عشرة أمتار فوق رأسي .

كانت الساعة العاشرة صباحاً ونور الشمس ينفذ إلى الماء ويضيء لنا الصخور والزهور والأصداف .

ووقف كونسيل ذاهلاً لروعة المشهد ، ولم أكن قادراً على مخاطبته فكنت أكلم نفسي معبراً عن إعجابي بما أرى ، ونادانا القبطان نيمو بإشارة من يده ، فمضينا معه وإذا الأرض منحدرة ، وبعد سهول الرمل وصلنا إلى المروج البحرية من الطحالب والإشنيات بأنواعها ، وكان العمق مائة متر تقريباً ، فتوقف القبطان أمام ما يدعوه الغابة البحرية ، وقد ارتفعت نباتاتها كالأشجار وحولها الأسماك الصغيرة تنتقل من غصن إلى غصن كأنها العصافير . كان علوها يزيد على خمسة عشر متراً ، تتحرك كأنها تهب عليها الرياح . إنها غابة حقيقية تحت الماء ..



بعد ساعة من السير أعطى القبطان نيمو الإشارة بالوقوف .

وبعد أربع ساعات من السير لم أحس بالجوع والتعب ، ولكن شعرت برغبة شديدة في النوم ، وهذا ما يحس به الغواصون عادة ، ورأيت كونسيل يشير إليّ فقربت رأسي النحاسي من رأسه ، فأشار إلي بوجهه إشارات مضحكة .

كان القبطان نيمو ورفاقه قد ارتموا راقدين فوق هذه المروج المضاءة كأنها الكريستال ، ففعلنا مثلهم ، وغفوت غفوة لم أعرف مدتها ، ولكن حين استيقظت وجدت القبطان نيمو واقفاً . ولا تسل عن دهشتي حين رأيت عنكبوتاً بحرياً طوله متر يمدّ إليّ كماشاته المخيفة ، فأومأ القبطان إلى أحد بحارته فضربه بفأسه ، وأدركت أن المنطقة غاصة بالحيوانات الخطرة ، ولا تنقذني سوى بندقيتي فاحترست لها . ولكن جولتنا لم تتوقف هنا على العكس مما تخيلت ، فقد تابع القبطان نيمو سيره في أرض يتزايد انحدارها حتى وصلنا وادياً ترتفع على جانبيه الصخور العالية ، وكان الظلام شديداً ،

فأشعل القبطان نيمو بطاريته فأضاءت ما حوله ، وفعلنا مثله فأضاءت البحر أشعات طولها خمسة وعشرون متراً .

حوالي الساعة الرابعة وجدنا أمامنا جداراً عالياً من الصخور الغرانيتية لا يمكن اجتيازها ، إنها جزيرة كريسبو ..

وتوقف القبطان ، هاهنا ينتهي ميدان صيده ، وتبدأ اليابسة التي حرم على نفسه السير فوقها .

استأنفنا طريق العودة في أرض وعرة يصعب السير فيها ، واقتربت أشعة الشمس من رؤوسنا وظهرت أنوارها على شكل قوس قزح يخترق الماء .

هنالك شاهدت أحد رفاق القبطان يتنكب بندقيته ويصوّب نحو طائر اقترب من سطح الماء وقد بسط جناحيه ، فأرداه قتيلاً .. إنه طائر نورس من نوع نادر ، وقد سقط على خطوات منا .

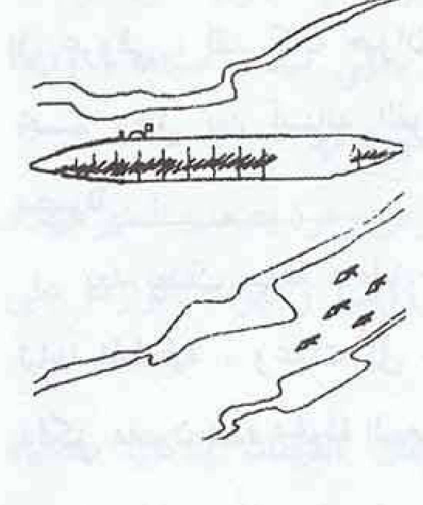
كنا نسير على أرض رملية ممتدة أمامنا ، فمشينا ساعة تقريباً وإذا أضواء النوتيلوس تظهر لنا على مسافة كيلو متر واحد تقريباً .

لم أعد قادراً على الاحتمال ، فقد هدني المسير فجلست قرب صخرة ، ورجع إليّ القبطان نيمو وساعدني على الوقوف ، فتوكأت على ذراعه ، ولكنه جذبني واختبأنا وراء شجيرة من الطحالب ، ورفعت رأسي إلى أعلى فتجمد الدم في عروقي ، لقد كان حيوان القرش بعينيه اللامعتين ممسكاً بجسم رجل بين أسنانه الفولاذية ، وابتعد عنّا دون أن يبصرنا .

بعد نصف ساعة دخلنا حجرة في النوتيلوس ونزعنا عنّا ثيابنا المطاطية ، وعدت إلى غرفتي منهكاً ميتاً من الجوع ، ولكني مفتون بهذه الجولة البحرية .

الفصل الثامن

أربعة آلاف فرسخ تحت المحيط الهادي



حكى كونسيل لنيدلاند تفاصيل الرحلة فأسف لأنه لم يرافقنا . وانقضت أسابيع لم أشاهد فيها القبطان نيمو ، ولكني أرى مساعده يصعد إلى المنصة ويكرر عبارته التي لم أفهمها ، فقلت لنفسي لعل معناها " لا شيء يرى" .

وعرفت النقطة التي يرصد منها المساعد موقعنا ، فاستطعت أن أتابع مسيرة النوتيلوس على الخريطة ، وكنا نقضي وقتنا في الاستمتاع بمشاهدة مناظر المحيط الهادي من وراء النوافذ الزجاجية .

توجهت النوتيلوس إلى الجنوب الغربي ، واجتزنا يوم **26** تشرين الأول مدار السرطان ، ومن الغد شاهدت من فوق المنصة جزر هاواي الكبيرة ، وفي أول تشرين الثاني اجتزنا خط الاستواء .

وكنت يوم **11** تشرين الثاني في المكتبة مشغولاً بالقراءة إذ دخل علي كونسيل وقال :

– ليأت سيدي فيرى ما رأينا .

فأسرعت إلى القاعة ، ونظرت إلى النوافذ الزجاجية ، فرأيت كتلة سوداء جامدة في وسط المياه . وظننتها حوتاً ضخماً ، ولكن تبينتها جيداً فإذا هي سفينة غارقة كانت مرمية على جانبها وبحارتها قد تشبثوا بالحبال أو الحواجز ، والربّان متمسك بالدفة وعيناه مفتوحتان وكأن الجميع صورة فوتوغرافية ثابتة . ودارت النوتيلوس حول السفينة فاستطعت أن أقرأ عليها اسم " فلوريدا " .

وكلما عبرت بنا الغواصة مياهاً أكثر ازدحاماً بالسفن صادفنا حطام السفن الغارقة ومدافع السفن الحربية ومعداتها .

صباح يوم **15** تشرين الثاني رأيت قمم (تاهيتي) ملكة المحيط الهادي ، وكانت النوتيلوس قد قطعت حوالي **4860** فرسخاً واقتربت من جزر (فيجي) .

ويوم **25** تشرين الثاني ، أي في عيد الفصح ، كنا في خليج (وايلي) ، فتزودنا بكمية من محاراتها الجيدة وأكل منها نيدلاند ما شاء تعويضاً عن احتفاله بهذا العيد مع أهله .

لم أكن قد رأيت القبطان نيمو منذ أسبوع ، فدخل عليّ القاعة ولم يلق التحية ، واقترب ووضع إصبعه على الخريطة وقال :

– فانيكورو !

وهذا اسم عجيب لأنه يعود بنا إلى سنة **1785** حينما كلّف الملك لويس الخامس عشر الأمير (لابيروز) بقيادة حملة عبر المحيط الهادي ، واختفت في هذه المنطقة سفينتاه (البوصلة) و (الأصطرلاب) وعلى متنهما جمهرة من العلماء .

سنة **1827** اكتشف الضابط الإنكليزي (ديلون) في جزيرة فانيكورو حطام السفينتين .

وسألت القبطان نيمو : هل وجهتنا فانيكورو ؟

فأجاب : نعم يا أستاذ .

– ومتى نصلها ؟

فأشار القبطان نيمو إلى الألواح التي تغطي النوافذ وقد انزلقت وقال : إنها هناك .

فأسرعت إلى النوافذ ، فرأيت حطام سفينة بصواريها ومرساتها .

وقال لي القبطان نيمو بصوت حزين : لقد استطاع لابيروز أن يصل إلى الجزيرة بعد تحطم سفينته ، ولكنه صنع سفينة صغيرة من حطامها وأبحر إلى جزر سليمان ثم هلك ما بين رأس (الخيبة) ورأس (الرضا) ، وأرجو من الله أن يكون مصيري وأصحابي مثل مصيره .

يوم الخامس من كانون الأول كنا في عرض مياه غينيا الجديدة ، وذكر لي القبطان نيمو أنه ينوي عبور مضيق

(توريس) ليصل إلى المحيط الهندي ، وهذا المضيق من أصعب المضايق البحرية لأن فيه الصخور الضخمة المسننة والجزر الصغيرة المتناثرة ، وقد دخلتُه ببطء والأمواج تفور من حولها .

قال نيدلاند : إن القبطان شديد الثقة بنفسه ، لأني أرى من مكاني هذه الصخور المدببة التي تعترض طريقنا وقد تحول النوتيلوس إلى أجزاء من قطع الغيار .

فقلت له : وهذا البحر الهائج لا يلائم الغواصة أبداً .

وكان القبطان يتحرك بالغواصة بين الصخور الهائلة ويتجنب بأعجوبة الاصطدام بها ، حتى خرج من المضيق فوصلنا الساعة الثالثة بعد الظهر قرب جزيرة (غيبورور) .

وفجأة ألقتني على الأرض صدمة قوية ، وتوقفت النوتيلوس تماماً ، ونهضت لأجد القبطان نيمو ومساعده يتحدثان بلغتهما ، فسألته : هل هذا حادث ؟

– بل حَدَثٌ طارئ .

فقلت له : ولكن الغواصة راسية على المياه الضحلة .

– أعلم ذلك .. واليوم هو الخامس من كانون الأول ، وفي الثامن منه سوف يظهر القمر ، فيرتفع المد وتعلو الأمواج ، ونستأنف طريقنا .

ثم نزل ومساعده إلى الداخل واقترب مني كونسيل ونيدلاند الذي سألني : ماذا حدث ؟

– ننتظر القمر الرائع لكي ينقذنا ويرمينا إلى عُرض البحر .

فهز كتفيه وقال : أما رأيي أنا فهو أن هذه الكومة من الخردة لا تصلح إلا لبيعها بالكيلو ، وقد حان الوقت لكي نغادر القبطان نيمو .

فقلت له : سنرى النتيجة بعد ثلاثة أيام .. وأما الهرب فمستحيل عبر غينيا الجديدة .

– لمَ لا نتنزه عبر هذه الجزيرة لعلنا نصيد بعض اللحم الطازج ، فقد سئمت أكل الأعشاب البحرية .

فتدخل كونسيل قائلاً : نيد على حق ، ألا يستطيع سيدي الحصول لنا من القبطان على إذن بالتجوال على اليابسة ؟ ، فقد تيبست مفاصلنا .

– سأطلب منه ذلك ، ولكنه سيرفض .

ودهشت حين قبل القبطان نيمو أن نتجول في الجزيرة . ووضع القارب تحت تصرفنا منذ صباح الغد .

ركبنا القارب مسلحين بالبنادق والفؤوس ، وكان كونسيل ونيدلاند يجذفان ، وأمسكت بالدفة أوجهها فقال نيد : سنأكل لحماً مشوياً .. إني أشم رائحته الآن .

– ولكن حذار من الوحوش ، فقد تكون صياداً ثم تصبح فريسة !

– سآكل لحم النمر إذا قدرت .

ووصلنا الساعة الثامنة والنصف إلى جزيرة غيبورور .

الفصل التاسع

صاعقة القبطان نيمو

كانت الأزهار البرية تزهو بألوانها والغابات الخضراء تسد الأفق ، ولكن نيدلاند لم يتأثر بهذا الجمال ، بل سارع إلى شجرة من أشجار جوز الهند فقطع عدداً من الجوز وكسرها وشربنا ماءها ، ثم قطع كمية كبيرة منها ورماها في القارب ، فقلت له :

– إن في الجزيرة أنواعاً أخرى من الطعام أكثر فائدة من جوز الهند .

وقال له كونسيل :

– أقترح أن تكون مؤونتنا على ثلاثة أنواع : الفواكه والخضار واللحوم التي لم أرها حتى الآن .

فقال له الرّماح :

– لا تيأس يا كونسيل .. وسوف ترى .

سرنا تحت ظلال الأشجار الكثيفة حوالي الساعتين في كل اتجاه ، وشاءت المصادفة أن نعثر على ما يدعى (أرتوكاربوس) أو شجر الخبز المنتشرة في جزيرة غيبورور ، وصاح نيدلاند فرحاً وهو يراه ، فقد اعتاد معالجته أثناء رحلاته الكثيرة ، فأشعل ناراً صغيرة ثم أضاف إليها بعض الحطب ، وقطع هذه الثمار شرائح سميكة وجعل يشويها .

وسألني :

– ألم يأكل منها سيدي من قبل ؟

– لا يا نيد .

– إذن استعد لتناول حلويات لذيذة الطعم .

وبعد دقائق كانت الفواكه جاهزة ، وكان طعمها شبيهاً بالأرضي شوكي ، وسألته :

– هل يمكنني الاحتفاظ بها طازجة على ظهر السفينة .

فقال :

– لا .. الأفضل أن نشويها هنا ونخزنها معنا .

وتدخل كونسيل :

– حصلنا على الخبز ، والآن تنقصنا الفواكه والخضار واللحوم .

ولم يكن بحثنا عبثاً ، فقد عثرنا حوالي الظهر على كمية كبيرة من الموز والمانغو ، وسبقنا نيدلاند وهو يجتاز بعض الجداول متوجهاً نحو وسط الجزيرة ، فرأينا سهلاً فسيحاً أمامنا ، ولاحظت كثرة طيوره ، فصحت قائلاً :

– طيور الجنة .. هيا يا نيد اصطدْ لنا بعضها .

– سأحاول ، ولكني أُفضل الرمح على البندقية .

استهلك كثيراً من الرصاص دون أن يصيب واحداً منها ، وكدنا نيأس منها لولا أن أصاب كونسيل زوجاً من الديكة البرية ، فأسرعنا إلى نتف ريشها وشيّها على النار .

وسألت الكندي :

– ماذا ينقصك الآن يا نيد ؟

فقال :

– هذا الديك فاتح للشهية فقط ، ولن أشبع إلا إذا اصطدت حيواناً له أضلاع سمينة .

وقال كونسيل :

– أرى أن نصطاد ونحن عائدون إلى الشاطئ قبل أن يفاجئنا الظلام .

وكان رأيه صائباً ، ومشينا عبر السهول الفسيحة التي تنتشر فيها شجيرات متفرقة . وفجأة صرخ كونسيل فرحاً ، وعاد يحمل أحد طيور الجنة بيده ، فقلت له :

– أحسنت يا كونسيل .. اصطدت طائراً بيدك ؟ هذه ضربة معلم .

– ولكن لينظر إليه سيدي عن قرب ، وسوف يرى أني لم أبذل جهداً .

– ولماذا ؟

– لأنه طائر سكران .

– سكران ؟

– نعم يا سيدي ، إنه سكران برحيق جوز الطيب الذي يرتشفه من شجره ، أرأيت يا نيد كيف تكون عاقبة السكران ؟

فضحك نيد من مداعبته ، وتأملت ذلك الطائر الرائع ، فكان رأسه أصفر يمتد إلى ذيله الطويل .

وكم فرحت لحصولي على هذه العيّنة النادرة .

بعد ساعتين اصطاد نيدلاند غزالاً ضخماً ، فعمد الرجلان إلى تقطيعه ، والتهما نصفه تقريباً . ثم صاد خمسة من حيوان الكنغر الذي يقال إن لحمه شهي ، ولو شاء نيدلاند لأفرغ الجزيرة من حيواناها لشدة شراهته إلى اللحم .

عدنا إلى الشاطئ الساعة السادسة مساءً ، ووجدنا النوتيلوس رابضة في مكانها على مسافة ميلين ، وأظهر لنا نيدلاند مهارته في الطبخ واستعد لتحضير العشاء ، وجلسنا نأكل بشهية عظيمة ، فقال كونسيل :

– لو بقينا هنا هذه الليلة ولم نرجع إليها أبداً !

وتحسر نيدلاند قائلاً :

– بل الأجدى ألا نرجع إليها أبداً .

في تلك اللحظة سقط حجر أمامنا ، ثم أصاب حجر آخر كونسيل وأطار قطعة اللحم من يده .

والتفتنا إلى الغابة فإذا على أطرافها عشرات من سكان الجزيرة وقد تسلحوا بالأقواس والسهام والمقاليع .

وتقدموا بخطا بطيئة ولكن حجارهم تتساقط علينا ، فصحت وأنا أجري نحو القارب :

– اتبعوني !

وكان القارب على مسافة خمسة عشر متراً منا ، ولم يشأ نيدلاند أن يتخلى عن غنائمه فحمل ما قدر على حمله ، وسرعان ما رمينا مؤونتنا في القارب ودفعناه إلى الماء ، فدخل الماء وراءنا عشرة رجال وهم يهزون أيديهم مهددين ويصرخون بأعلى أصواقم ، وبعد عشرين دقيقة وصلنا إلى النوتيلوس .

وجدت القبطان نيمو في القاعة يعزف على الأرغن ، فناديته عدة مرات حتى اجتذبته من تأملاته الموسيقية فقال :

– هل أعجبتك جولتك ؟

– ولكن اضطررنا إلى اختصارها بسبب هؤلاء المتوحشين الذين طاردونا .

فقال بلهجة هازئة :

– المتوحشين ؟ إني أصادفهم حيث توجهت ، وليس المتوحشون من قومك بأفضل منهم .

– إنهم مائة على الأقل .

– اطمئن .. يا سيدي الأستاذ ، حتى لو اجتمعت قبائل غينيا الجديدة كلها فلا خوف على النوتيلوس من هجومهم .

من الغد في السابع من كانون الأول صعدت إلى المنصة حوالي السادسة وانقشع الضباب ، وإذا على شواطئ الجزيرة خمسمئة أو ستمائة من سكانها ، واقترب بعضهم حتى خمسين متراً من الغواصة ، وكان زعيمهم الذي يعلو الريش رأسه يشير بيده وهو يتفحصها على مرمى بندقيتي ، ولكني لم أشأ

المبادرة إلى الهجوم . وحوالي الحادية عشرة ابتعد سكان الجزيرة عن الغواصة لأن المد البحري بدأ في الارتفاع ، وانتهزت هذه الفرصة فناديت كونسيل فجاءني بشبكة تشبه شبكة صيد المحارات فاصطدت خلال ساعتين كمية كبيرة من المحارات والأصداف ، وصرخت صرخة فرح وأنا أتأمل محارة من نوع نادر .

أما كونسيل فقد قال :

– ولكنها محارة مبتذلة .. ويوجد الكثير منها .

فقلت وأنا أتأملها ثانية :

– نعم .. ولكنها تنتقل من اليسار إلى اليمين ، هذه محارة عَسْراء .

ورفع كونسيل هذه الأعجوبة يتأملها ، وإذا حجر يسقط عليها ويكسرها ، فتنكب بندقيته وصوبها فأصاب إسوارة العظم التي يضعها أحد المهاجمين على معصمه ، ولم يكد يفعل حتى هجمت القبيلة على الغواصة وقد رأوها ساكنة لا تتحرك .

وهتف كونسيل :

– اللعنة .. لقد أمطرت السماءُ حجارةً .

وهبطنا إلى الغواصة ، فسارعت إلى القبطان نيمو فوجدته غارقاً في حساباته ، فسألته :

– هل أُزعجك ؟

– نعم .. إلا إذا كان دخولك لسبب وجيه .

– حتماً .. إن مئات المتوحشين يهاجموننا .

فقال وهو يضغط على زر بجانبه :

– يكفي أن نغلق الفتحات .. وقد فعلتُ .. ولا أظنك تخاف أن يخترق المهاجمون الفولاذ بسهامهم ؟

– ولكننا سنضطر إلى فتحها للتزود بالهواء ، فما العمل حينئذٍ ؟

– سيأتي هؤلاء الناس لزيارتنا ، فمرحباً بهم ، ولا أريد أن أرتكب جريمة قتل في جزيرة غوبورور .

– ولكن النوتيلوس غارقة .

– لا .. ليست غارقة ، ولا خطر عليها ، وغداً الساعة الثانية وأربعين دقيقة ستغادر مضيق توريس .

ورجعت إلى غرفتي وأصوات الرجال فوق الغواصة تصل إلى سمعي ولا أحد من الطاقم يهتم بهم ، فنمت نوماً متقطعاً وأنا أتوقع هجومهم كل لحظة .

استيقظت صباحاً فبقيت في المكتبة ولم أر القبطان نيمو ، والأصوات فوق الغواصة لم تتوقف .

حوالي الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة ، ذهبت إلى القاعة الكبرى فوجدت القبطان فيها ، فقال :

– سنرحل .. وقد أعطيت الأمر بتهوية الغواصة .

– والمهاجمون ؟ ألا يدخلونها ؟

فقال بهدوء عجيب :

– لا يمكن لأي إنسان دخول النوتيلوس حين يشاء ، تعال معي وسوف ترى .

أسفل السلالم كان كونسيل ونيدلاند يرقبان رجال الطاقم وهم يكشفون الفتحات ، فأطلت عشرات الرؤوس

منها صارخة مهددة ، ولكنهم حين تقدموا إلى الحواجز المحيطة بها ، أطلقوا صرخات الفزع وولوا هاربين ، وكأن قوة خفية أطاحت بهم إلى الخلف ، وتبعهم نيدلاند بغريزته القتالية ، فأمسك بالحواجز وإذا به يسقط أرضاً وهو يجأر من الألم .

لقد كانت الحواجز مكهربة يجتازها تيار خفيف ، ولو شاء القبطان القضاء عليهم لأرسل تياراً عالي التوتر .

في الساعة الثانية وأربعين دقيقة تماماً تحركت الغواصة نوتيلوس مخلفة وراءها مضيق توريس .

الفصل العاشر

مملكة المرجان

في الأيام التالية استأنفت النوتيلوس مسيرها نحو الغرب بسرعة سبعين كيلو متراً في الساعة ، وعَبَرنا إلى المحيط الهندي بعيداً عن اليابسة ، وقد راقبت القبطان نيمو وهو يقوم بأبحاثه حول درجة ملوحة المياه وعمقها ولونها وحرارتها ، ثم اختفى عدة أيام . وانقضت الأيام على هذا المنوال الذي اعتدناه ، ووجدناه أمراً طبيعياً ، حتى ذكّرتنا إحدى الحوادث بحالتنا .

صباح الثامن عشر من كانون الأول ، صعدت إلى المنصة فرأيت مساعد القبطان يتمشّى والجو متقلب ينذر بعاصفة ، ولم أسمعه ينطق بالعبارة المعتادة بل استبدل بها عبارة أخرى

لا تقل عنها غرابة . وظهر القبطان نيمو فوراً ووجّه منظاره المقرّب إلى نقطة معينة في الأفق وتأملها طويلاً ، ثم تبادل بعض العبارات مع مساعده الذي ظهر عليه القلق . ولم يعد القبطان يتحكم في أعصابه ، فبدأ يتمشى جيئةً وذهاباً ثم يتوقف ليراقب البحر ، وأما أنا فلم أر شيئاً بالعين المجردة ، فنزلت إلى غرفتي وجلبت منظاري الذي أستخدمه في النُزهات ، وما كدت أرفعه إلى عينيّ حتى انتزعه مني القبطان نيمو وقد ظهر على وجهه الغضب الشديد ، والتمعت عيناه بالحقد ، ثم استعاد هدوءه المألوف وقال بلهجة آمرة :

– يا أستاذ أرونكس .. إني أطالبك بالوفاء بما تعهدتَ به .

– وما الأمر ؟

– أن تبقى أنت ورفاقك محبوسين إذا اقتضت الضرورة ذلك .

فقلت له ، وأنا أعلم أن لا فائدة من المقاومة :

– كما تشاء ، فأنت القبطان .

ومضيت إلى كونسيل ونيد أُعلمهما بما حدث وبقرار القبطان ، ولم يكن لدى نيد وقت للاحتجاج ، إذ أقبل أربعة من رجال الطاقم وساقونا إلى الحجرة التي حُبسنا بها أول مرة ، وطلب مني كونسيل تفسير هذا التصرف ، وقبل أن أقول شيئاً فُتحت الحجرة وجيء بالطعام ، فقال نيد :

– آه .. ولكنه طعام خاص بالسجناء .

فقلت :

– هذا خير من الجوع .

تناولتُ قليلاً من الطعام ، وأجبر كونسيل نفسه على الأكل احتياطاً وحذراً ، وأما نيدلاند فلم يترك فُتات خبزة ، ثم جلس كل منا في ناحية وأُطفئ النور ، وبقينا في الظلام الدامس .

لم يلبث نيد أن نام ولحق به كونسيل ، وشعرت بثقل في رأسي وبدوار عنيف ، فأدركت أن المخدّر قد دُسَّ لنا في الطعام . وسمعت صوت الفتحات وهي تغلق ، وأحسست

بسرعة الغواصة المندفعة تحت الماء ، وأصاب أطرافي برد شديد ، ثم غلبني النعاس .

من صباح الغد ، دُهشت إذ وجدتُني في غرفتي . فهل كنت حراً أم سجيناً ؟ بل حر طليق ، فتجولت في الردهات ، وصعدت إلى المنصة حيث ينتظرني نيد وكونسيل اللذان استيقظا في تلك الليلة ، وأما البحر فكان كالصحراء الخاوية .

في ليلة التاسع عشر من كانون الأول صعدت النوتيلوس إلى السطح مرات عديدة لتجدد هواءها ، وصعد المساعد ليكرر جملته المعتادة .

حوالي الساعة الثانية رأيت القبطان نيمو في القاعة الكبرى كئيب الوجه حزين الملامح وهو يتمشى دون أن ينطق بكلمة ، فيأخذ كتاباً ثم يرميه ، ويجلس ثم ينهض وكأنه لا يطيق البقاء في موضع واحد ، وأخيراً تقدم إليّ قائلاً :

– هل أنت طبيب يا أستاذ أرونكس ؟

لم أتوقع هذا السؤال منه ، فنظرت إليه دون أن أجيبه ، وأعاد عليّ سؤاله ، فقلت له :

– طبعاً .. إني طبيب ممارس في المستشفيات لعدة سنوات قبل أن ألتحق بالمتحف .

فتردد لحظة ثم قال :

– هل تستطيع معالجة أحد رجالي ؟

– وهل عندكم مريض ؟

– نعم .

– إني ذاهب معك .

وحينما كان القبطان يتقدمني إلى مؤخرة النوتيلوس ، شعرت بالقلق ، فقد يكون أحد الأمراض السارية أصاب أحد البحارة ، وأحداث البارحة مرتبطة بهذا المرض .

دخلنا حجرة استلقى فيها رجل في الأربعين من العمر ، وكان رأسه ملفوفاً بالضمادات الملطخة بالدم ، فالأمر لا يتعلق بمرض سارٍ بل بحادث . ففككت الضمادة فإذا عظم الرأس مكسور حتى المخ ، ونبض المريض ضعيف متقطع

لا يكاد يبين ، وأطرافه باردة ، فبدلت الضمادات واتجهت إلى القبطان ، فقال :

– تستطيع الكلام ، فالرجال يجهلون الفرنسية .

– سيموت خلال ساعتين .

– ألا يمكن إنقاذه ؟

– لا يمكن .

وشد قبضتي يديه ، ولمحت غمامة من الحزن قد غمرت عينيه ، وقال لي :

– تستطيع الذهاب يا أستاذ أرونكس !

من صباح الغد وجدت القبطان نيمو على المنصة ، فتوجه إليّ بالحديث فوراً فقال :

– سنقوم اليوم بجولة بحرية ، فهل ترافقنا ؟

– ومعي صاحباي ؟

– إذا شاءا .

– بأمرك يا سيدي القبطان .

– ارتدوا بدلاتكم إذن !

ولم يذكر لي الجريح .

فرح كونسيل لهذه الجولة وأراد نيدلاند مرافقتنا هذه المرة . وبعد نصف ساعة كنا جاهزين ، وبعد دقائق وطئنا بأقدامنا أرض البحر ومعنا عشرة من طاقم الغواصة ، كانت الأرض منحدرة تؤدي إلى قاع فيه كثير من الصخور ، وعرفت المنطقة التي يقودنا القبطان إليها إنها مملكة المرجان .

بعد ساعتين من السير توقف القبطان والبحارة الذين يحملون شيئاً ، وتحت أقدامهم كانت الأرض مرتفعة في عدد من المواضع ، فعرفت أنها مقبرة وأن الشيء الذي يحملونه جثمان الميت .

تناول أحد البحارة رفشاً وحفر في الأرض المرجانية قبراً ، واقترب أصحابه فجعلوا جثمان الرجل فيه ، وركع القبطان نيمو وأصحابه وهم يقولون شيئاً بلغتهم ، وتلونا عليه نحن بعض الصلوات راجين له الرحمة والغفران .

عدنا إلى الغواصة بعد ساعة فقلت للقبطان :

– هل مات الرجل أثناء الليل ؟

– بعد يا سيد أرونكس .

– إنه يرقد الآن مع أصحابه في مملكة المرجان .

فعلت الكآبة وجهه وقال :

– نعم حيث ينساه الجميع إلا نحن .

– موتاكم يرقدون هنا بعيداً عن أسنان سمك القرش .

فقال القبطان نيمو بحزن :

– نعم .. وبعيداً عن أنياب البشر أيضاً .

الجزء الثاني

الفصل الأول

لؤلؤة بعشرة ملايين

لقد كانت حياة القبطان نيمو مرتبطة بالبحر حتى النفس الأخير ، فاختار مقبرة بحرية تقطع علاقته بالمجتمع حتى بعد موته ، ورأى كونسيل أنه عبقري ضيّعه قومه فاعتزلهم ، ولكن هذه الفرضية لا تفسر سرّ حادثة الليلة الماضية والجرح القاتل الذي أصاب الرجل .

لا . إن القبطان نيمو لا يعتزل الناس فحسب ، فهل تكون غواصته وسيلة إلى الانتقام ؟

صباح يوم 24 كانون الأول توجهت الغواصة نحو شبه الجزيرة الهندية ، ووصلنا يوم 26 كانون الأول إلى منطقة

مياهها بيضاء ، كأنها الكلس ، فدهش كونسيل وسألني عن هذه الظاهرة فقلت له :

– هذا بحر الحليب كما يسميه البحارة ، وهو في الحقيقة كمية هائلة من ملايين المخلوقات الشّعرية الدقيقة لا يتجاوز طولها خُمس المليمتر ، وقد تمتد على مسافة خمسين كيلو متراً .

واخترقت الغواصة هذا البحر الهائل من البياض وسرت داخله عدة ساعات ، وتركته وراءها كأنه الفجر الكاذب .

وصلت النوتيلوس يوم 28 كانون الأول إلى جزيرة سيلان ، ومضيت إلى المكتبة أراجع كتاباً حول هذه الجزيرة الخصبة ، ودخل القبطان نيمو قائلاً :

– إن جزيرة سيلان مشهورة بصيد اللؤلؤ ، فهل ترغب في زيارة إحدى مصائد اللؤلؤ ؟

– لا شك في ذلك .

– لقد وصلنا مبكرين ، فالموسم لم يبدأ بعد ، وإذا أسعفنا الحظ رأينا بعض الصيادين وهم يغوصون على اللؤلؤ ، وبالمناسبة ألا تخاف من أسماك القرش ؟

وفوجئت بسؤاله فقلت له بصوت مرتجف :

– الواقع .. أني .. لم آلف هذه المخلوقات بعد !

– ستفعل مثلنا .. وصيد القرش ممتع كما سترى غداً .

ثم غادر المكان خفيف الخطوات كأنه دعاني إلى حفلة راقصة . بعدئذ دخل كونسيل ونيدلاند ، فقال كونسيل :

– إن القبطان دعانا إلى زيارة مصائد اللؤلؤ في سيلان .

– ولم يذكر لكم شيئاً آخر ؟

– لا .. أبداً ، وهل سيأتي سيدي معنا ؟

– أنا ؟ طبعاً ، لا شك .

– وهل يتفضل سيدي فيشرح لنا كيف يتشكل اللؤلؤ ؟

فقلت له :

– اللؤلؤ يتشكل داخل محارة ، ونواته حبة رمل أو طفيلي دقيق تلتف حوله مادة الصدف سنوات طويلة .

– ويقال إن بعض اللآلئ تباع بأثمان باهظة .

– نعم يا كونسيل ، ولكن لا أظن ملكاً من الملوك لديه لؤلؤة كالتي يملكها القبطان نيمو .

وأشار كونسيل إليها وراء الواجهة الزجاجية :

– أهذه هي ؟

– نعم . وأقدر ثمنها بمليوني فرنك ، ولم تكلف القبطان شيئاً .

– وهل صيد اللؤلؤ خطر ؟

فتدخل نيدلاند قائلاً :

– نعم ، لأن الصياد يبتلع كمية كبيرة من الماء المالح ، فهل هذا خطير ؟

وانتهزت هذه الفرصة لأعلمهما بأنهما مقبلان على صيد القرش ، فقلت لنيدلاند :

– هل تخاف القرش يا نيد ؟

فقال نيد ضاحكاً :

– وهل نسيت أني رمّاح أصيد الحيتان ؟

– ولكنك تصيدها وأنت فوق القارب .

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أن تصيدها وأنت في الماء .

– الحقيقة يا سيدي أنك إذا كان معك رمح صلب والتفت إليك القرش ليلتهمك ..

وحين سمعت كلمة " يلتهمك " اقشعر شعر بدني ، لأن نيدلاند يلفظها كأنها مألوفة لديه ، وسألت كونسيل .

– وأنت ما رأيك بصيد أسماك القرش ؟

– أنا .. إذا عزم سيدي على مواجهة أسماك القرش واجهتها معه ، فأنا أتبع سيدي حيث يكون .

تلك الليلة نمت وأنا أحلم بأشداق القرش تلتهم بعض أطرافي ، فنهضت مذعوراً ، ولكني وجدت الخادم أمامي يوقظني ، فالساعة الرابعة صباحاً والقبطان نيمو يدعوني إليه .

قال لي القبطان :

– سوف نترك النوتيلوس بعيداً عن الساحل ، ونركب القارب ومعنا معدات الغوص ، وسوف نرتديها في آخر لحظة .

ومشيت معه إلى المنصة فوجدت نيد وكونسيل وخمسة من البحارة ، فنزلنا القارب وبدأ أربعة منهم يجذفون والخامس ممسك بالدفة يوجه القارب .

بعد ساعتين وصلنا الشاطئ ، فأشار القبطان إلى البحارة فتوقفوا ورموا المرساة . كان عمق الماء حوالي المترين ، فقال القبطان :

– ها قد وصلنا . أترى هذا الشاطئ المهجور ؟ ستراه بعد شهر عامراً بالغواصين على اللؤلؤ .

وارتدينا بدلات الغوص ولكني لم أجد فيها المصابيح لأن المياه قريبة ، وتفقدت البنادق فلم أجدها أيضاً ، وسألت القبطان فقال :

– وما حاجتنا إلى البنادق ؟ هذا نصل صلب قاطع فاجعله في حزامك .

ورأيت نيدلاند يهز رمحاً طويلاً بيده .

وصلنا الساعة الرابعة إلى الصخور التي يفترض أن تكون فيها محارات اللؤلؤ ، ولكنه لم يتوقف عندها ، وأشار إلينا أن نتبعه ، فوصلنا مغارة تتدلى منها الطحالب كالأشجار وتحجب نور الشمس عنا ، وحين اعتادت عيناي الظلام ، رأيت القبطان يتوقف عند حفرة عميقة كالبئر ، وأشار إلى شيء لم نره بعد ، فكانت محارة ضخمة يتجاوز قطرها المترين ، فدنوت من هذه الظاهرة العجيبة التي التصقت بصخرة من الغرانيت ، وقدّرت وزنها حوالي ثلاثمائة كيلو غرام . فأدخل القبطان نيمو خنجره في فتحتها وكشف عنها غطاءها بيده ، فرأيت تحته لؤلؤة تشع بالنور بحجم جوزة الهند كاملة الاستدارة صافية ، فأدركت سبب هذه الزيارة ، لقد كان القبطان عارفاً بموقع المحارة ، وينتظر نموها لكي يضمها إلى مجموعته ، وقدرت ثمنها بعشرة ملايين فرنك على الأقل . وأطبق القبطان غطاء المحارة على لؤلؤتها الباهرة ، وتفرقنا بين الصخور نبحث عن المحارات ذات اللآلئ .

بعد عشر دقائق استدعانا القبطان إليه . وخطرت ببالي أسماك القرش فخفق قلبي جزعاً ، ولكني وجدت أحد الهنود وقد ضمّ قدميه على حجر موصول بحبل إلى قاربه ، ومعه كيس يملؤه بالمحارات ثم يصعد فيفرغه ، وتدوم العملية ثلاثين ثانية .

وراقبت الرجل نصف ساعة وهو يتردد بين القارب والقاع . وفجأة رأيته يرمي ما بيده ويحاول الصعود بسرعة وقد ظهرت سمكة قرش طولها عشرة أمتار تندفع وقد فتحت شدقها ، فارتمى الهندي جانباً ليبتعد عن أسنانها ، ولكنها لطمته بذيلها ورمته بعيداً .

وانقلبت السمكة على ظهرها وارتدّت إلى الهندي المغمى عليه . عندئذ وثب القبطان نيمو إلى سمكة القرش فطعنها بخنجره طعنة نجلاء ، ولكنه فقد توازنه لقوة حركتها وسقط أرضاً ، فاندفعت إليه فاغرة فمها عن ستة صفوف من الأسنان القاطعة ، فلم يمهلها نيدلاند فأرسل رمحه في قلبها ، فغاص نصفه وتدفقت الدماء غزيرة .



نهض القبطان سالماً ، وحمل الهندي بين ذراعيه وارتفع به إلى أعلى ، واعتنينا بالهندي حتى عاد إليه وعيه . فمد القبطان يده إلى بدلته وجذب كيساً صغيراً مملوءاً باللآلئ ، ووضعه في يد الصياد البائس الذي لم يصدق عينيه لرؤية هذه الثروة الطائلة . ثم عدنا إلى الغواصة ، ونزعنا بدلاتنا المطاطية ، فاقترب القبطان من نيدلاند قائلاً :

– شكراً لك يا نيدلاند !

– هذا بعض واجبي نحوك يا قبطان .

فابتسم القبطان ابتسامة خفيفة ، هذا كل شيء .

إن ما لفت انتباهي أمران : شجاعة القبطان نيمو ، وعطفه على الجنس البشري ، وهو الذي اعتزل مجتمعه . وحين صرّحت له بذلك قال بلهجة حانية :

– اعلم يا سيدي أن هذا الهندي من بلاد المستضعفين ، وقد كنت أنتسب إلى هذه البلاد وما أزال ، وسأبقى حتى آخر قطرة من دمي أنتسب إليها .

الفصل الثاني

النَّفَق العربي

يوم 29 كانون الثاني توجهت النوتيلوس إلى جزر المالديف ، ثم انحرفت شمالاً – غرباً نحو عُمان ، ولكنها لم تدخل الخليج العربي . وأبصرت يوم 4 شباط مدينة مسقط بقباب مساجدها ومآذنها ، وأراضها الخضراء .

ومن الغد كانت النوتيلوس مبحرة في خليج عدن ، وظننت أنها ستنطلق إلى المحيط ولكنها انسربت في البحر الأحمر . ولم تكن قناة السويس قد شُقّت في ذلك الزمان ، فتساءلت عن السبب الذي دفع القبطان نيمو إلى الدخول في

هذه المياه المغلقة ، ولم أندم لأنه فعل ذلك ، فقد كانت رؤية الإسفنج بأنواعه وألوانه متعة لا مثيل لها .

وصعدت إلى المنصة فرأيت القبطان واقفاً يتأمل المدن المنتشرة على ضفتي القناة ، وسألني :

– هل درست حيوانات هذا البحر وأسماكه ونباتاته ؟

– نعم .. وهذا بفضل النوتيلوس ، ولكن ما سبب تسميته البحر الأحمر ؟

– هناك نظريات عديدة ، إحداها أن فرعون حينما طارده موسى وقومه غرق في البحر مع جنوده .

– ولكن ما هو رأيك الشخصي ؟

– أظن أن القدماء أطلقوا عليه هذا الاسم بسبب الطحالب المجهرية التي تلون مياهه .

– وهل جئت إلى هذا البحر من قبل ؟

– طبعاً .. مرات عديدة .. ولحسن الحظ فإن حفر قناة السويس قد بدأ ، وسوف يكون مفيداً للملاحة العالمية .

ويؤسفني ألا ترى سوى مدينة بور سعيد ، لأننا سنعبر إلى البحر الأبيض المتوسط بعد غدٍ .

– وهل تستطيع النوتيلوس أن تدور حول إفريقيا في ثمان وعشرين ساعة ؟

– ومن سيدور حول إفريقيا يا سيدي الأستاذ ؟

– إلا إذا مرت الغواصة تحت البرزخ الذي يفصل البحر الأحمر عن البحر الأبيض المتوسط .

– نعم .. سنمر تحت البرزخ .

– تحته ؟

– نعم .

– وهل يوجد نفق تحت البرزخ ؟

– نعم .. نفق تحت الأرض دعوته " النفق العربي " .

– وهل يحق لي أن أسألك كيف اكتشفته ؟

– لم تعد الآن بيننا أسرار لأننا سنظل معاً .

وقد لاحظت أن بعض الأسماك المنتشرة في البحر الأحمر هي من فصيلة واحدة من أسماك البحر الأبيض المتوسط ،

وتساءلت عن وجود ممر بين مياه هذين البحرين ، فاصطدت كمية ضخمة من أسماك البحر الأحمر ، وألصقت بأذيالها خواتم نحاسية وأعدتها إلى الماء ، وبعد شهور اصطدت في شواطئ سوريا عدداً من هذه الأسماك فتأكدت من وجود نفق ، وبحثت عنه بواسطة النوتيلوس ، حتى اكتشفته ، وبعد وقت قصير سنعبر النفق العربي .

حين أعلنت هذا النبأ على كونسيل خبط كفاً بكف من العجب ، وأما نيدلاند فقد هزّ كتفيه وهو يشك في حُدوثه ، ثم قال :

– إذا كان هذا النفق موجوداً فمن حسن حظنا لأنه يؤدي بنا إلى البحر الأبيض المتوسط ومن ثَم إلى أوروبا .

وقت غروب الشمس أبصرنا مدينة جُدّة التي كان بياضها يتلألأ في عتمة المساء .

من الغد العاشر من شباط ، حوالي منتصف النهار كنا واقفين على المنصة ، فانضم إلينا القبطان . ورفع نيدلاند يده وقال :

– انظر هناك يا أستاذ .. ألا ترى شيئاً يتحرك ؟
ونظرت حيث أشار وقلت :
– نعم .. إنه جسم طويل .
وسأل الكندي :
– هل توجد حيتان في البحر الأحمر ؟
– نعم .. عدد قليل .
فقال نيد :
– ولكنه ليس حوتاً ، فما عساه يكون ؟ ليس له ذيل حوت ، وتبدو زعانفه كالأيدي الطويلة .
فقلت :
– إنه من فصيلة الحوت ، وهو يدعى " أطوم " .
وتدخل القبطان نيمو قائلاً :
– ما رأيك أن تصيده ؟ ولكن إذا طعنته فلتكن طعنة قاتلة .
فسأله نيد :
– هل هو خطر ؟

– نعم .. إذا هاجمك .

وبعد دقائق أنزل القارب إلى الماء وصحبنا فيه سبعة من البحارة ، ولم يرافقنا القبطان نيمو ، وكان نيدلاند ممسكاً برمحه وقد ربط بطرفه الآخر حبلاً لفّه حول برميل صغير لكي يطفو ويدل عليه .

اقترب القارب من " الأطوم " بصمت ، وكان طوله سبعة أمتار ، ويبدو أنه راقد ، فرفع نيد رمحه ورماه ، فاختفى الحيوان . وهتف الكندي غاضباً :
– لقد أخطأته .
فقلت له :
– لا ، انظر إلى بقعة الدم هذه ، لقد جرحته ولكن الرمح خَرَجَ منه .

واسترد نيد رمحه بفضل البرميل العائم ، وانطلق القارب لمطاردة الأطوم ، فكان على الرغم من جرحه يسبح سريعاً ، ثم غطس في الماء ، وانتظرنا ساعة حتى صعد وارتد إلى القارب يهاجمه .

وصاح نيدلاند :

– حذار ، إنه يصدمنا .

وكانت الصدمة قوية إلا أنها لم تقلب القارب ، فأمسكه الأطوم بنابيه ورفعه فوق الماء ، ولم يتردد نيدلاند فغرس رمحه في قلبه فهرب سابحاً وهو يجر البرميل وراءه .

وبعد دقائق رأيناه يطفو وبطنه إلى أعلى ، فسحبناه إلى النوتيلوس برافعة ، فقد كان وزنه يتجاوز خمسة الأطنان .

مساءً كان عشاؤنا شرائح من لحمه الأشهى من لحم العجل .

من الغد وصلنا مدينة السويس ، ورأينا أضواءها اللامعة من بعيد ، وقال لي القبطان :

– سنغطس لندخل النفق .

– أظن المناورة صعبة .

– نعم .. ولذلك سأتولاها بنفسي ، هل ترافقني يا أستاذ ؟

– بكل سرور .

دخلنا غرفة القيادة وهي مكعبة طول كل جدار فيها متران ، ولها قمرات ضخمة من الزجاج الصلد تسمح بالرؤية من كل الاتجاهات ، وتضيء لها البحر تلك الأنوار الكاشفة .

قال القبطان :

– سندخل النفق الآن .

كان أمامنا جدار مرتفع ، فهبطت الغواصة تحته الساعة العاشرة والربع ، فرأيت تحت الأضواء الكاشفة نفقاً طويلاً يُسمع فيه هدير هائل ، إنها مياه البحر الأحمر تندفع إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتبعت النوتيلوس تيار الماء .

في الساعة العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة ترك القبطان دفة القيادة لمساعده ، والتفت إليَّ قائلاً :

– مرحباً بك في البحر الأبيض المتوسط .

لقد قطعت النوتيلوس برزخ السويس في أقل من عشرين دقيقة .

الفصل الثالث

البحر الأبيض المتوسط في ثمان وأربعين ساعة



من صباح الغد الثاني عشر من شباط طفت النوتيلوس على سطح الماء ، وكانت أمامنا مدينة دمياط ، ونهض نيدلاند بعد أن نام الليل كله ، وجاء إليّ يتمطى وقال :

– أين هذا البحر المتوسط الذي تحدثنا عنه ؟

– إنك فوق مياهه يا نيد !

– لا تسخر مني يا أستاذ !

فتدخل كونسيل :

– إذا قال لك سيدي الأستاذ شيئاً فصدقه .

فقال نيدلاند وهو يتلفت حوله :

– والآن .. ما دمنا قريبين من أوروبا ، فيجب أن نغادر الغواصة قبل أن يمضي بنا القبطان إلى القطب الشمالي أو المحيط الأوقيانوسي .

والحق أنني لم أكن أشاركه رغبته ، إذ أتيحت لي على متن الغواصة رحلات رائعة لا تتاح لي أبداً ، واستطعت دراسة أعماق البحار بشكل لا أحلم به من قبل .

وسألت نيد :

– قل لي بصراحة ، هل سئمت السفر على متن الغواصة ؟ وهل أسفت لهذه الرحلات ؟

فقال نيد :

– والله إنها فرصة لا تعوض لرؤية البحار ، ولكن لا بد لكل رحلة من نهاية .

– سوف تنتهي الرحلة يا نيد .

– متى ؟ وأين ؟

– لا أدري ، قد تمتد رحلتنا إلى الصين أو إلى السواحل الفرنسية أو إلى الجزيرة البريطانية ، وحينئذٍ تكون الظروف أفضل لنا لمحاولة الهرب .

فقال نيد بصوت رزين :

– إنك تتكلم يا سيدي الأستاذ عن الزمن المستقبل ، وأنا أكلمك عن الزمن الحاضر ، نحن الآن في البحر المتوسط ويجب ألا نفوّت هذه الفرصة .

لم أعد أستطيع مداورة نيد والتهرب من جواب صريح له ، فقلت :

– إني أوافقك تماماً ، ولكن ينبغي لمحاولتنا أن تنجح ، وإلا أنزل بنا القبطان أشد العقاب .

– كلامك عين الصواب ، والفرصة السانحة التي أتكلم عنها ستكون عند أحد السواحل الأوروبية في ليلة ظلماء .

– وهل تفكر بالهرب سباحة ؟

– بل أفكر باستخدام القارب ، فحين تبدأ الغواصة بالغطس نفك القارب ونركبه إلى الشاطئ .

فقلت له : ولكن هذه المحاولة مصيرها الفشل .

– ولماذا ؟

– لأن القبطان نيمو ليس غافلاً عنا ، وسوف يضاعف الحراسة علينا حين نصل السواحل الأوروبية .

– سنرى ذلك في حينه .

– ولكن لا تتسرع ، وإذا عزمت أن تفعل شيئاً فأعلمنا ولا تفعله وحدك ، وسنمضي معك .

وكأن القبطان أدرك نوايانا ، فظلت النوتيلوس غائصة طول الوقت في مواجهة السواحل . وحين وصلنا أرخبيل اليونان بقيت ستائر النوافذ في القاعة الكبرى مسدلة .

ونظرت إلى الخريطة فعرفت أننا نتوجه إلى جزيرة (كريت) ، وكانت الجزيرة ثائرة على السلطان التركي ، وأردت أن أسأل القبطان عن أخبارها فأحجمت ، لأن هذا الرجل قطع علاقاته بالعالم الخارجي .

حين جلسنا في القاعة الكبرى وجدت القبطان حائراً وقد فتح ستائر النوافذ كلها وهو يترقب شيئاً في البحر .

وجعلت أتأمل الأسماك التي تمر أمامي ، فأبصرت فجأة كتلة سوداء تتقدم نحونا ، وإذا هو رجل وسط الأمواج يسبح بقوة وسرعة ، ثم يطفو إلى السطح فيتنفس ثم يعود إلى الغوص . فصحت وأنا ألتفت إلى القبطان نيمو :

– إنه غريق .. يجب إنقاذه مهما كان الثمن .

ولكنه لم يتأثر ، ولوّح للرجل بيده فأجابه السباح بإشارة مماثلة ، ثم صعد إلى السطح واختفى .

فقلت للقبطان : إنك تعرفه إذن ؟

– نعم . إنه يدعى (نيقولاس) وهو غواص معروف في رأس (ماتبان) ولا تقلق عليه لأنه يعيش في الماء أكثر مما يعيش على الأرض .

واتجه القبطان إلى صندوق على الطاولة ، ثم فتح خزانة كبيرة وإذا بالسبائك الذهبية مصففة فيها .

ولم يهتم بي بل ملأ الصندوق بالسبائك ثم أغلقه ، وقدرت ما في الخزانة بحوالي الطن ذهباً .

ثم كتب على الصندوق عنواناً باليونانية الحديثة ، وضغط على زر فدخل أربعة رجال فحملوا الصندوق بصعوبة ومضوا به ، وحيّاني القبطان تحية المساء وذهب .

ما العلاقة بين هذا الغواص وصندوق السبائك الذهبية ؟

وطفت الغواصة على السطح وغادرها القارب ، ثم عاد بعد أن أُرسل الصندوق إلى وجهة مجهولة . لماذا نقل القبطان هذه السبائك إلى اليابسة وما الهدف منها ؟ لست أدري .

من الغد غادرت الغواصة الأرخبيل اليوناني وظهر على القبطان أنه يسعى إلى الهرب من البحر المتوسط ، ولعله يثير لديه كثيراً من الذكريات أو الحسرات ؟ لا أعرف .

صباح السادس عشر من شباط عبرنا مضيق جبل طارق والشمس تشرق علينا بيوم جديد .

في هذه الظروف تخلى نيدلاند عن مخططات هربه ، وأما أنا فلم ألمح البحر الأبيض المتوسط إلا سواحله البعيدة .

ليلة 18 شباط غاصت النوتيلوس حوالي ثلاثة آلاف متر تحت الماء ، مقتربة من مضيق جبل طارق .

وبدأت مناظر السفن الغارقة تظهر من وراء النوافذ الزجاجية ، أما النوتيلوس فقد اجتازت المضيق غير مبالية بما حولها ، وبعد دقائق كانت مقدمتها تشق مياه المحيط الأطلسي .

الفصل الرابع
القارة الغارقة

اجتازت الغواصة مضيق جبل طارق ثم ارتفعت إلى سطح الماء ، وكنت في غرفتي حين جاءني نيدلاند عابس الوجه مقطب الجبين وقال :

– هذا المساء ... سيكون هربنا هذا المساء .. لقد اتفقنا على انتظار الفرصة المناسبة وقد جاءت هذه الفرصة ، ونحن على أميال من الساحل ، والريح هب في اتجاه اليابسة ، والليلة مظلمة .. لقد وعدتني .

قلت :

– ولكن البحر هائج .

– نعم ، البحر هائج ، ولكن الحرية تستحق المخاطرة ، الساعة التاسعة سيكون القبطان في غرفته ، وستظل أنت في المكتبة ، وحين أشير إليك ستنضم إلينا أنا وكونسيل تحت السلم المركزي ، وقد حصلت على مفتاح إنكليزي لفك " عزقات " القارب ، وحضرت بعض المؤونة .. كل شيء جاهز .. ليكن الله في عوننا إلى هذا المساء .

وتركني نيد حائر الفكر ولم يترك لي مجالاً للتراجع .

في تلك اللحظة غاصت النوتيلوس في أعماق المحيط .

فتناولت عشائي بسرعة وأعددت مذكراتي العلمية ، وارتديت ثياباً دافئة وحذاءً من المطاط ومضيت إلى المكتبة أنتظر الساعة التاسعة .

الساعة التاسعة إلا خمس دقائق اصطدمت الغواصة صدمة خفيفة ، فأدركت أنها لامست قاع المحيط .

في تلك اللحظة دخل القبطان وقال :

– إني أبحث عنك ، هل تعرف تاريخ إسبانيا ؟

في حالتي القلقة هذه طارت من رأسي جميع معلوماتي ، فقلت :

– الواقع أنني غير مطلع على التاريخ بشكل جيد .

فقال :

– سأحكي لك إذن فصلاً من هذا التاريخ المضطرب .

قلت :

– إني أستمع إليك يا قبطان .

وبدأ القبطان يروي لي :

– أنت تعلم أن إسبانيا كان يحكمها ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وحدث في سنة 1702 أن نقلت السفن الإسبانية من أمريكا صناديق من الذهب والفضة ، وحين وصلت إلى خليج (فيغو) هاجمتها السفن الإنكليزية ، فاضطر القبطان الفرنسي إلى إحراق السفن المحملة بالذهب لكي تغوص في أعماق البحر ولا تسقط في يد الأعداء .

وسكت القبطان نيمو قليلاً ليعرف جوابي ، ولكني بقيت ساكتاً ، ثم سألته :

– وإذن ؟

– إننا الآن يا أستاذ رونكس في خليج " فيغو " تعال معي .

واقتربنا من النوافذ ، وإذا طاقم النوتيلوس في بدلات الغوص ينقلون الصناديق المملوءة بسبائك الذهب والفضة والحلي .

فابتسم القبطان وهو يقول :

– هذا جواب سؤالك عن مصدر ثروتي ، إني أملك المليارات كما ترى .

– ولكنها أموال ضائعة مع الأسف .

فعلت لهجة القبطان وهو يقول :

– ضائعة ! وهل تظنني يا أستاذ أجمع هذه الثروات لنفسي ؟ وهل تحسبني غافلاً عن المحرومين والبائسين وعن الشعوب المقهورة وعن ضحايا الظلم والاستبداد ؟ إنك لا تعرفني إذن .

وتوقف عن الحديث كأنه باح بأكثر مما ينبغي له ، ولكني أدركت السبب الذي يدفع هذه الروح العظيمة إلى تكديس الكنوز الطائلة ، وعرفت لمن أرسل الصناديق الذهبية حينما توقفنا في عرض المياه اليونانية .

صباح الغد 19 شباط جاءني نيدلاند إلى غرفتي هائجاً وقال :

– لم يختر هذا القبطان اللعين وقت غوصه إلا حين حددنا موعد هربنا .

فقلت له :

– نعم .. لأنه ذهب إلى المصرف .

– إلى المصرف ؟ ماذا تعني ؟ .

ورويت له حكاية الكنوز الذهبية ، فأسف لأنه لا ينال نصيباً منها ، ثم قال :

– ما هي إلا طعنة رمح خائبة وسوف تصيب في المستقبل .

صعدنا إلى المنصة وكان الجو غائماً ، ولاحظنا أن الغواصة تتجه إلى الجنوب الغربي مخلفة وراءها السواحل الأوروبية ، واهتاج نيدلاند ، أما أنا فشعرت بالارتياح واستأنفت أبحاثي السابقة .

حوالي الساعة الحادية عشرة مساء جاءني القبطان وقال :

– ما رأيك بجولة ليلية في أعماق البحار ، ولكنها مرهقة لأننا سنصعد الجبل .

– لقد أثرت فضولي ، إني جاهز للقدوم معك .

حين بدأت أرتدي بذلة الغوص لاحظت أننا وحدنا ، وبعد لحظات وطئت أقدامنا أرض الأطلسي والقبطان ممسك بيده قضيباً حديدياً يتوكأ عليه .

أشار القبطان إلى شعاع بعيد أحمر اللون ، وفهمت منه أنه هدفنا من هذه الجولة ، وبعد نصف ساعة من المسير أصبحت الأرض وعرة والصخور مسننة ، والقبطان غير مبال بما حوله يتقدم بثقة ، وقد انعكست قامته الطويلة على المياه بسبب ذلك الضوء المتوهج ، وكانت الساعة الواحدة صباحاً

حينما وجدنا أنفسنا في غابة كثيفة من الأشجار اليابسة . غابة حقيقية وليست من النباتات البحرية . فقطعناها مسرعين حتى وصلنا إلى سفح جبل تحيط به المنحدرات العميقة ، وكانت كل خطوة تحمل خطر الموت .

ما إن وصلنا إلى قمة الجبل حتى أشار القبطان إلى وسط غابة من الطحالب ، ثم انحدرنا ولم يتوقف القبطان عن المسير بل كان يشير إليّ بالإسراع للحاق به .

وقفت أتأمل القمة البعيدة التي يشع منها النور الأحمر ، وإذا هي بركان هائج يرمي حممه بين الأمواج وتحملها التيارات البحرية بعيداً .

وقطعنا مسافة قصيرة وكان البركان ينير لي الطريق ، فانفتحت أمامي سهول واسعة ، وامتدت فيها إلى الأفق مدينة كاملة من الأطلال والخرائب ، فالشوارع عريضة مرصوفة بالحجارة ، وأعمدة النباتات الشاهقة منهارة متناثرة ، وتستطيع أن تميزها ، فهذا المجلس الاستشاري ، وهذا

المسرح ، وذلك الملعب ... إنها مدينة هائلة قد زلزلت الأرض بها وابتلعتها المياه ، أين نحن ؟ وما هذه المدينة ؟

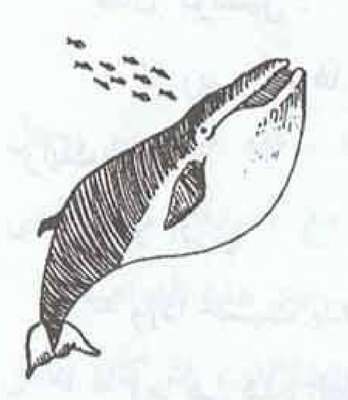
أمسك القبطان بقطعة من الحجر وكتب على الصخرة " أطلنطا " ، إنها الحضارة التي ذكرها أفلاطون وكانت مزدهرة في الدهور الغابرة .

هبطنا الجبل مسرعين ، ولم يطلع علينا الفجر إلا ونحن على متن الغواصة النوتيلوس .



الفصل الخامس

حيتان العنبر



من الغد **20** شباط استيقظت متأخراً وتوجهت إلى القاعة الكبرى لأعرف اتجاه الغواصة ، فوجدتها ماضية إلى بحر (السرخس) ، وهي بحيرة كبيرة وسط المحيط الأطلسي ، يحيط بها تيار من المياه الدافئة ، يدعى (غولف ستريم) ، وتنمو داخل هذه البحيرة نباتات السرخس على مد النظر ، وقد تجنب القبطان هذه البحيرة التي تشتبك نباتاتها في العنفة وتمنعها عن الحركة ، فغاص تحتها .

من صباح الغد وحتى **12** آذار أبحرت نوتيلوس وسط الأطلسي بسرعة مائة فرسخ بحري في الأربع والعشرين ساعة ، ولم يحدث أثناء ذلك شيء يستحق الذكر .

ويوم 14 آذار جاءني كونسيل ونيدلاند وسألني نيد :

– كم تظن عدد البحارة على متن النوتيلوس يا سيدي ؟

– لا أعرف يا صاحبي .

فقال كونسيل :

– لا ريب أن لها طاقة قصوى ، فكم عدد الرجال في رأيك ؟

– لا أدري .

– وإذا حسبت يا سيدي ذلك بطريقة علمية ؟

– وما هي هذه الطريقة ؟

– لا ريب أن كل فرد يستهلك كمية محددة من الهواء ، فإذا حسبنا حجم الغواصة ، وعرفنا الكمية اللازمة لكل شخص .. فقاطعته إذ عرفت قصده :

– إن الهواء الذي تخزنه النوتيلوس يكفي لستمائة وخمسة وعشرين رجلاً لمدة أربع وعشرين ساعة .

فهتف نيدلاند :

– ستمائة وخمسة وعشرين ؟

– ولكن ليس على متنها سوى عُشْر هذا العدد .

فهمس كونسيل :

– هذا العدد كثير على ثلاثة رجال .

وخرج الهندي وهو يهزّ رأسه .

فقال كونسيل وهو يتأمله مبتعداً :

– أرجو أن يتفهم سيدي حالته ، فهو ليس من رجال العلم ، ولا يسعده سوى البقاء مع أصدقائه في المقهى يسامرهم ، وهو لا يجد شيئاً يفعله على متن هذه الغواصة .

ولكن طرأ حادث أثار فضول نيدلاند ، إذ كان يتأمل المحيط ، ثم صاح وهو يقفز فرحاً :

– الحوت .. الحوت .. آه لو كنت على متن سفينة لصيد الحيتان لرأيتني كيف أفعل .. بدلاً من البقاء على ظهر علبة السردين هذه .

وسألته :

– ألم تصطد في هذه البحار يا نيد ؟

– لا بل اصطدت في البحار الشمالية .

- إذن أنت لا تعرف الحوت الجنوبي ؟

- لذلك أحب التعرف إليه ، آه .. إنه سرب من الحيتان .

فقال له كونسيل :

- لِمَ لا تذهب وتطلب الإذن من القبطان بالصيد ؟

ولم يكد كونسيل يلفظ هذه العبارة حتى اختفى نيدلاند ورجع والقبطان معه ، فقال نيد :

- ما رأيك أيها القبطان أن أصطاد بعضها ، سأنسى مهنتي إذا بقيت بدون عمل .

فقال القبطان نيمو :

- وما الفائدة من صيدها ؟ إنه القتل من أجل القتل .

ولا يمكنك أن تتخيل ملامح نيدلاند وهو يستمع إلى هذا الدرس في الأخلاق ، فسكت لحظة ثم أشار إلى الأفق قائلاً :

- أترى هذه الحيتان البعيدة ؟

- نعم إنها حيتان العنبر ، ويجب إبادتها .

- وإذن دعني أقم بهذه المهمة قبل أن نهاجم الحيتان المسالمة .

فقال القبطان نيمو :

- لا فائدة من تعريض نفسك للخطر ، ستقوم النوتيلوس بهذه المهمة بدلاً عنك ، تعالوا معي .

وهبطنا إلى حجرة القيادة ، فضغط القبطان على بعض الأزرار ، فبرز في مقدمة الغواصة سيف طويل حاد النصل ، وقال القبطان :

- هذا الرمح أقوى من رمحك وأشد فتكاً .

وهاجم القبطان حيتان العنبر وقطعها قطعاً صغيرة ، فإذا غرس سيف الغواصة في أحدها انتقل إلى الآخر حتى لم نعد نرى واحداً فيها يتحرك .

وصعدنا إلى المنصة ، وإذا الغواصة محاطة بالجثث والماء الأحمر حولها ، فقال القبطان مخاطباً نيد :

- ما رأيك ؟

- هذه مذبحة وليست صيداً ؟

– لكل امرئ سلاحه .

ونظر نيد إلى القبطان نيمو نظرة حاقدة ، فأدركت أن من واجبي الاحتراس منه ومراقبته عن كثب .

الفصل السادس

القطب الجنوبي

يوم الخامس عشر من آذار أبصرت الجليد العائم لأول مرة ، وكان القبطان نيمو أثناء هذه الرحلة يقف على المنصة دوماً ويوجه النوتيلوس بانتباه شديد بين كتل الجليد التي يبلغ بعضها عدة كيلو مترات طولاً وسبعين كيلو متراً ارتفاعاً .

وقد يبدو الأفق مسدوداً أمامنا ، ولكن القبطان نيمو يجد ممراً تنفذ منه الغواصة . وأعترف بأن هذه الرحلة قد أمتعتني ، إذ لم أكن أسأم من تأمل هذه الجبال العائمة التي تشبه المدن بأشكالها العجيبة .

يوم السابع عشر من آذار اجتازت الغواصة دائرة القطب الجنوبي واندفعت داخل الجبال الجليدية تشطرها بقوة ، وقد ترتفع فوق إحدى الكتل فتتحطم تحت ثقلها محدثة ضجة هائلة .

يوم الثامن عشر من آذار توقفت الغواصة وقد أحاطت بها الكتل الجليدية ، فسألني القبطان :

– ما رأيك يا سيدي الأستاذ ؟

– أظننا علقنا بين الكتل الجليدية .

– علقنا ؟ ماذا تقصد بذلك ؟

– أقصد أننا لن نستطيع الحركة .

– وتظن أن النوتيلوس غير قادرة على الحركة ؟

– نعم .. ولا أظن أن الكتل الجليدية ستذوب من حولنا .

فابتسم القبطان وقال :

– الغواصة ستتخلص من الكتل وتنطلق حتى القطب الجنوبي .

– القطب الجنوبي ؟

– نعم .. وأنا أستطيع التحكم في النوتيلوس كما أشاء .

وكنت أعلم أنه لم يصل أحد من قبل إلى القطب الجنوبي ، فسألته :

– هل وصلت إلى القطب الجنوبي من قبل ؟

– لا .. ولكننا سنكتشفه معاً .

– وهل ستحطم هذه الكتل الجليدية أم ستحلّق فوقها ؟

– بل سأغوص تحتها .

– ولكن كتل الجليد تغوص ثلاثة أرباعها تحت الماء .

– نعم .. وأنت ترى أن ارتفاعها لا يتجاوز المائة متر فيكون ما بقي منها ثلاثمائة متر ، وهذا عمق لا تعجز الغواصة عنه ، وأعتقد أن الهواء لن ينقصنا ، ولكن هناك مشكلة ، وهي كيف نخرج من تحت الماء ، لأن الجليد يتجمد على سطح القطب كله .

– وهل نسيت أن الغواصة مزودة برمح هائل قادر على اختراق سطحه ؟

بدأت الأجهزة تضغط الماء في الخزانات ، وغطسنا وكانت ساعات الغطس تشير إلى ثلاثمائة متر تحت الماء ، ثم أشارت إلى ثمانمائة متر والغواصة تسير إلى القطب الجنوبي .

من صباح الغد أشارت ساعات الضغط إلى أننا نصعد ببطء نحو السطح ، وأحسست بصدمة ، إذ أن الغواصة لامست الجليد وهي على عمق ثلاثمائة متر ، وبدأت تكسر هذا السقف فوقها ، وحين رقدتُ مساءً كان سمك السقف خمسين متراً فقط . استيقظت الساعة السادسة صباحاً لأجد القبطان نيمو يفتح باب غرفتي ويقول :

– إننا على السطح يا أستاذ أرونكس !

وهُرعت إلى المنصة لأرى البحر يمتد أمامنا حتى الأفق ، وقد انتشرت فيه الكتل الجليدية ومئات الطيور تحلق فوقنا ، والأسماك تعوم بعشرات الأنواع .

وسألته :

– هل نحن في القطب الجنوبي ؟

– لا أعرف بعد .. سنجري حساباتنا حين تخترق الشمس الضباب .

بعد ساعة كانت قناةٌ ضيقةٌ تمتد بيننا وبين البر ، فأُنزل القاربُ إلى الماء ، وحمل القبطان مع اثنين من البحارة الأجهزة ، فركبت مع كونسيل القارب ، وظل نيدلاند في حجرته .

ووصلنا الساعة العاشرة إلى الشاطئ الرملي ، وقلت للقبطان :

– تفضل بالنِزول أولاً ، لتكون أول رجل يطأ القطب الجنوبي بقدميه .

فوثب القبطان بخفة إلى الرمل ، وتسلّق صخرة عالية ، فوقف عليها وقد صالب ذراعيه ، وعيناه تنظران إلى السماء كأنه يمتلك هذه المساحات كلها .

ثم هبطت مع كونسيل ، فوجدت الشاطئ مملوءاً بالأصداف ونجوم البحر ومئات الطيور البحرية تحلق في الجو ،

وخاصة طيور النورس ، وفوق الصخور أسراب من طيور البطريق تسدّ الأفق .

حتى الساعة الحادية عشرة لم تظهر الشمس بعد ، ويستحيل علينا أن نعرف ما إذا كنا في القطب الجنوبي أم لا ، فاقتربت من القبطان نيمو الذي جلس مستنداً إلى صخرة ينتظر طلوع الشمس .

تكاثفت الغيوم في الساعة الثانية عشرة ، واشتد البرد حتى اضطررنا إلى العودة إلى الغواصة ، وقال القبطان وقد قطب حاجبيه :

– إلى الغد !

وهبت عاصفة ثلجية شديدة استمرت حتى الغد ، وسَرَت النوتيلوس ليلاً ، فقطعت عشرين كيلو متراً نحو الجنوب .

وفي يوم 20 آذار صباحاً انقشع الضباب ، وانتظرنا طلوع الشمس .

هبطت الساعة الثامنة إلى البر مع كونسيل ، فوجدنا أسراباً كثيرة من الحيوانات البحرية من فصيلة الثدييات ، وخاصة الدلافين التي كانت تنظر إلينا بعيونها اللامعة .

فقال كونسيل :

– إني مسرور لأن نيدلاند لم يصحبنا .

– ولماذا ؟

– لأن هذا الصياد المسعور سيصطادها جميعاً !

– ولكن هل عرفت هذه الثدييات يا كونسيل ؟

– ليتفضل سيدي بذكر أسمائها .

– إنها الفَقَمة والمورس أو فيل البحر ، وهي من الثدييات ذوات العمود الفقري .

– لنذهب لرؤيتها عن قرب .

وتجولنا بين هذه الحيوانات التي كانت تتقافز في الماء بأعداد هائلة ، بعضها يتسلق الصخور ، وبعضها ينام هانئاً على الشاطئ ، وأما فيل البحر فهو حيوان ضخم له خرطوم قصير ، ولم يأبه لقدومنا إطلاقاً .

من بعيد ، رأينا قطيعاً من هذه الفيلة البحرية ، فصعدنا إحدى القمم وتأملناها كأنها بحر متلاطم من الحيوانات ذات اللون الوردي والأنياب العاجية ، وقلت لكونسيل :

– حان وقت العودة إلى النوتيلوس ، لأني أريد مشاركة القبطان في رصد الشمس .

ومشينا بضع دقائق ، وإذا القبطان فوق صخرة مرتفعة وبجانبه أجهزته .

كانت الساعة الثانية عشرة ولم تظهر الشمس ، وغداً هو الواحد والعشرون من آذار ، يوم الاعتدال الخريفي ، فإذا لم تظهر الشمس فيه لنقيس ارتفاعها ، فلن تظهر إلا بعد ستة أشهر ولن نعرف موقعنا أبداً .

وأفضيت إلى القبطان نيمو بما جال في خاطري ، فقال :

– أنت على حق ، ولكن إذا ظهرت الشمس غداً الساعة الثانية عشرة فسوف يَسْهُل عليَّ قياس موقعنا .

تجولنا قليلاً ، فحمل كونسيل بعض بيوض طائر البطريق ، وحملها بيده كأنها آنية ثمينة من الخزف الصيني ،

ونقلها إلى النوتيلوس حيث وضعها في إحدى الواجهات الزجاجية .

الساعة السادسة من صباح الغد ، صعدت إلى المنصة فوجدت القبطان نيمو ، فقال لي :

– أرى الطقس يتحسن ، وسوف ننزل إلى البرّ بعد ساعتين لنختار موقعاً نرصد الشمس منه .

فهبطت إلى غرفة نيدلاند لأقنعه بمرافقتنا ، ولكنه رفض بعناد ، ولاحظت أن مزاجه يزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

نزلنا إلى البر الساعة التاسعة ، وكانت السماء صاحية والغيوم تنقشع إلى ناحية الجنوب ، فتوجه القبطان نيمو إلى ذروة هضبة اختارها ليرصد منها الشمس .

وكان الصعود إلى هذه الصخور البازلتية شاقاً ، والجو مشبع بغاز الكبريت المتصاعد من الوادي ، وبقينا ساعتين حتى تسلقنا الهضبة ، فأشرفنا على سهول لا نهاية لها من الثلوج الممتدة نحو الجنوب . وأما في الشمال فكان قرص الشمس يتراقص في الأفق .

وسارع القبطان إلى أجهزة الرصد فضبطها ثم نظر فيها ، والتفت إليّ مبتسماً وقال :

– منتصف النهار !

ودعاني إلى الجهاز فنظرت فيه ، فرأيت الأفق يشطر قرص الشمس شطرين متساويين : إننا في القطب الجنوبي .

هرول القبطان نيمو إلى الغواصة ، ثم عاد ومعه عَلَم صغير أسود اللون ، في وسطه حرف النون ، فغرسه في الأرض وهو يصيح :

– أنا القبطان نيمو ، وصلت إلى القطب الجنوبي يوم 21 آذار سنة 1868 ، وإني أملك سدس الكرة الأرضية .

ثم التفت نحو الشمس وقال :

– وداعاً أيتها الشمس ! ارقدي على هذا البحر الحر ، ودَعي ستة أشهر من الليل تمتد على قارتي الجديدة .

الفصل السابع

نقص الهواء

غادرت النوتيلوس المنطقة يوم 22 آذار ، الساعة السادسة صباحاً . وقد بدأ البرد يشتد لاقتراب الظلام ، وهاجرت الدلافين والطيور من المنطقة بحثاً عن مكان أكثر دفئاً ، ولم يبق فيها سوى الفقمات وفيلة البحر ، وغطست الغواصة إلى عمق ثلاثمائة متر ، وقد أسدلت الستائر الحديدية على النوافذ تحسّباً لصدمات الكتل الجليدية ، فبقيتُ في المكتبة أحرر مذكراتي ، وقد اختلطت في رأسي مراحل هذه الرحلة ، وخاصة زيارتنا الأخيرة إلى القطب الجنوبي ، وغلبني النعاس وأنا أحلم بها .

استيقظت الساعة الثالثة على صوت هائل وصدمة كبيرة رمتني إلى وسط الغرفة ، وكانت النوتيلوس ساكنة وقد انقلبت على جانبها ، وتعالت أصوات البحارة ، ودخل كونسيل ونيدلاند فسألتهما :

– ماذا حدث ؟

فقال كونسيل :

– جئنا نسألك نحن .

فقال نيدلاند :

– أرى أن الغواصة قد انقلبت ولن ننجو هذه المرة كما حدث في مضيق توريس .

ونظرت إلى مقياس العمق ، فوجدته يشير إلى ثلاثمائة متر .

وهتفتُ :

– ما معنى هذا ؟

وبحثنا عن القبطان فلم نجده ، لعله في غرفة القيادة .

بعد عشر دقائق ، دخل القبطان نيمو وقد ظهر عليه القلق . ونظر إلى الساعات وهز رأسه ، ثم التفتَ إليّ ، فسألته :

– هل هو حادث عارض ؟

– لا .. بل حادث أكيد .

– خطير ؟

– ربما ..

– وما سببه ؟

– ليس سببه خطأ في الملاحة يا أستاذ أرونكس .. ولكن حين يسخن قاع كتلة الجليد تنقلب رأساً على عقب ، وقد انزلقت إحداها تحت النوتيلوس ، ونحن نرتفع الآن إلى أعلى .

بعد قليل ، انحصرت الغواصة بين القاع والسطح ، ولم تعد قادرة على الحركة ، إذ أحاط بها الجليد من كل صوب .

الساعة الخامسة صباحاً ، حاولت الغواصة أن تفتح طريقاً بالرجوع إلى الوراء فلم تنجح ، فتقدمتْ إلى الأمام وصدمت الحاجز الجليدي فلم ينكسر .

بعد لحظات دخل القبطان نيمو إلى القاعة ، فسألته :

– هل سُدّت المنافذ أمامنا يا قبطان ؟

– نعم .

وسأله نيدلاند :

– ما العمل إذن ؟

فقال القبطان وكأنه يشرح درساً في الرياضيات لتلاميذه :

– أيها السادة .. نحن بين أمرين : إما أن نموت تحت ثقل الكتل الجليدية ، أو نموت بالاختناق لنقص الهواء .

فقلت له :

– لا نخشى الاختناق لأن خزانات النوتيلوس مملوءة بالهواء .

فقال القبطان :

– نعم .. ولكننا تحت الماء منذ ست وثلاثين ساعة ، وسوف يُستهلك الاحتياطي خلال يومين .

– وإذن .. علينا أن نخلّص الغواصة خلال يومين .

– سنكسر جدار الجليد ، وسوف ينْزل الرجال ببدلات الغوص ليسبروا أقل الجدران سماكة .

وخرج القبطان ، فقلت لصاحبيّ :

– إننا الآن في وضع حرج ، ولا بد أن نتحلّى بالشجاعة والصبر .

فقال نيدلاند :

– ليس الآن وقت الشكوى ، ولكني أُحسن استخدام المعول ، وسوف أضع نفسي تحت تصرف القبطان .

فشددت على يده وأنا أقول :

– نعم .. يُعرف الرجال وقت الشدائد .. هيا بنا !

وكان بحارة النوتيلوس يرتدون بدلات الغوص ، فانضمّ نيدلاند إليهم ، وخرجوا إلى العمل ومعهم القبطان نيمو الذي يتفحص الجدران الجانبية . وبعد خمسة عشر متراً من الحفر وجدوه سميكاً . ولم يفكروا بثَقْب السقف لأنه جبل من الجليد ، فرأوا أن يحفروا الأرضية التي يفصلها عن الماء عشرة أمتار ، ويجب أن يحفروا تحت النوتيلوس كي تخترقَ الأرضية

وتعوم في الماء . ولكن القبطان آثر أن يكون الحفر أمام الغواصة لكي يكون عملهم أوضح ويمكن قياسه ، ولا يكون الحفر تحتها .

بعد ساعتين من العمل المتواصل رجع نيدلاند مرهقاً ، فمضيت أنا و كونسيل وأخذنا مكانه في فريق العمل الذي كان يقوده مساعد القبطان .

وحين رجعت بعد ساعتين ، وجدت الاختلاف كبيراً بين جو الغواصة وبين الهواء المضغوط الذي كنا نتنفسه من أجهزة الغوص .

وتناوبتْ فرق العمل خلال أربع عشرة ساعة ، فلم يحفروا سوى متر من الجليد ، وإذا استمر الحال على هذه الوتيرة ، يلزمنا خمس ليال وأربعة أيام لاختراق الأرضية الجليدية .

من الغد ، لاحظت أن جدران الجليد تقترب من الغواصة وتجعل درجة الماء حولها ست درجات تحت الصفر ، فإذا

استمر الحال على هذا المنوال انطبق الجليد على الغواصة وحطمها تحطيماً .

وأفضيتُ إلى القبطان نيمو بمخاوفي ، فقال بهدوئه المعتاد : أعرف ذلك ، ولكنني لم أجد وسيلة أجنّب بها النوتيلوس هذا المصير ، علينا الإسراع في العمل ، هذا كل ما بوسعنا ..

من الغد 26 آذار ، لاحظت أن الجدران المحيطة بالغواصة تزداد انطباقاً ، وسوف تنغلق عليها تماماً قبل الانتهاء من الحفرة .

شعرت باليأس يجتاحني ، ومرّ القبطان بجانبي فسألته عن احتياطي الهواء ، فحدّق إليّ ثم قال :

– ستكون الخزانات فارغة بعد غد .

وشحب وجهي ، لقد كنت على علم مُسبق بذلك ، ولكن حضور الخطر يختلف عن توقعه . ولمحت وجه القبطان قد تغيّر قليلاً ، ثم ابتسم وهو يصيح : الماء المغليّ .

– الماء المغليّ !



– نعم يا أستاذ .. أليس الماء المغلي الذي تدفعه المضخات يرفع درجة الحرارة من حول النوتيلوس ؟

فقلت مبتهجاً :

– فلنحاول !

ومضيتُ معه إلى المطبخ حيث المَراجل المعدة لتقطير الماء ، فأشعلها القبطان حتى بلغت حرارة الماء مائة درجة ، وبدأ يضخه حول النوتيلوس ، فانخفضت الحرارة درجة واحدة .

وما زال يضخ الماء وهو يقول :

– لقد نجحنا .. لن تتحطم النوتيلوس .

وصلت درجة الحرارة حول الغواصة درجة فوق الصفر وزال الخطر ، لأن ماء البحر لا يتجمد إلا في الدرجتين تحت الصفر .

من صباح الغد ، كان عمق الحفرة خمسة أمتار . وما يزال أمامنا يومان من العمل وهواء الغواصة لا يمكن تجديده .

حوالي الساعة الثالثة شعرت بثقل في أطرافي ، فاستلقيت على الأرض غير قادر على الحركة .

وكم فرحت حين جاء دوري للعمل خارج الغواصة ، لأني سأتمتع بتنفس الهواء النظيف .

آخر النهار ، كان بيننا وبين الماء متران من الجليد ، ولكن الهواء المضغوط مخصص للعمال فقط ، ولا شيء منه للغواصة ، فقضيت الليل أتعذب أشد العذاب وأتنفس كالمخنوق .

صباح اليوم التالي ، اتخذ القبطان نيمو قراراً بأن تحطم الغواصة طبقة الجليد الباقية لكي نربح ساعات ثمينة ، فقد أشرفنا على الهلاك لنقص الهواء .

دخل الجميع إلى الغواصة ، وملأت الخزانات بالماء ليزداد ثقلها مائة طن ، وسمعتُ بعد قليل ضجة هائلة كأنها القماش يتمزق ، وأهوت النوتيلوس على طبقة الجليد بكل ثقلها .

ثم بدأت المضخات تطرد الماء المخزون ، واندفعت المروحة تسوق النوتيلوس بأقصى سرعتها . وكنت متمدداً

على الكرسي وقد ازرقت شفتاي وتراقصت الصور أمامي ، ورأيت الموت ..

وفجأة هبّت عليّ نسمة قوية من الهواء المنعش الذي اجتاح النوتيلوس .. لقد صعدنا إلى سطح الماء .

الفصل الثامن

الأخطبوط

لم أدر كيف وصلت إلى المنصة فوق سطح النوتيلوس ، ولعلّ نيدلاند حملني إليها ، وكنت أملأ رئتي بهواء البحر المنعش .

وقال كونسيل :

– آه .. ما ألذ هواء البحر !

ليتنفس سيدي ملء رئتيه دون خوف ، لأن الهواء متوفر بكثرة الآن .

وأما نيدلاند ففتح شدقه على آخره كأنه فم سمكة القرش ، واستنشق ما قدر عليه من الهواء ، ثم قال :

– ألست على حق حين أطلب منكما مغادرة علبة السردين هذه ؟

فقال كونسيل :

– نعم .. وسوف أتبعك على شرط أن يسبقني سيدي ، لأني أذهب حيث يذهب .

وسألني نيدلاند :

– في أي اتجاه سنمضي الآن ؟

فقلت :

– في اتجاه الشمس .. نحو الشمال .

فقال نيدلاند :

– نعم .. ولكن هل نتجه إلى المحيط الهادي أم الأطلسي ؟ نحو البحار المأهولة أم المهجورة ؟

ولم أجبه لأني أخشى أن يكون القبطان نيمو عازماً على المُضيّ بنا إلى المحيط الهادي ليستكمل دورته حول العالم ، وبذلك تفشل خطط نيدلاند كلها .

يوم 31 آذار ، كانت النوتيلوس تبحر بأقصى سرعتها نحو (كاب هورن) ، ولم يعد يظهر القبطان نيمو ، ولاحظت أننا نتوجه إلى المحيط الأطلسي .

من الغد ، الأول من نيسان ، صعدت النوتيلوس إلى سطح البحر بجانب المنطقة المسماة (أرض النار) ، ورأيت منحدرات (سارمنتو) ، وسألني نيدلاند عن موقعنا ، فقلت :

– إننا الآن بمحاذاة جزر (الملوين) التي يدعوها الإنكليز (فوكلاند) .

ثم غطست النوتيلوس عدة أيام وهي تمخر بمحاذاة السواحل الأميركية بسرعة جنونية .

وأدرك نيدلاند أنها تتحاشى سواحل البرازيل المأهولة .

صعدت النوتيلوس يومَي 11 و 12 نيسان إلى السطح قرب جزيرة (غويان) الفرنسية ، وقد اصطاد البحارة كمية من الأسماك ، وفيها سمكة مسطحة كاملة التدوير بيضاء الظهر ، بطنها أحمر ، عليه بقعة زرقاء ، فأعجب بها كونسيل كثيراً ، وأمسك بها ليضمها إلى مجموعته ، ولكنه سقط على ظهره وكأنما شُلت يداه ، وصاح :

– النجدة يا سيدي .. أرجوك !

وكانت هذه المرة الأولى التي يخاطبني فيها بضمير المتكلم ، وسارع إليه نيدلاند يفرك يديه ويهدئ مِنْ رَوْعه ، فقلت له :

– إنها سمكة الطوربيد .. من فصيلة (الكومانا) ، وهي قادرة على كهربة الأسماك على مسافة أمتار .

فصاح كونسيل :

– سآخذ ثأري منها .

– وكيف ؟

– سآكلها مشوية .

ولكنه ارتكب خطأ جسيماً إذ أصر على الانتقام منها لأن لحمها متين كجلد النعل .

ابتعدت النوتيلوس عن السواحل الأمريكية ، وكان واضحاً أن القبطان نيمو يتجنب خليج المكسيك وجزر الأنتيل .

في السادس عشر من نيسان ، كنا على مقربة من جزر المارتنيك الفرنسية ، وتأملها نيدلاند وهو يتحسر لأننا كنا في عُرض البحر .

في المساء عقدنا اجتماعاً ، أنا وكونسيل ونيدلاند ، تدارسنا خلاله حالتنا ، فقد لبثنا ستة أشهر سجناء على متن النوتيلوس ، قطعنا خلالها سبعة عشر ألف فرسخ ، فهل سنظل على متنها إلى الأبد ؟ واقترح عليّ نيدلاند أن أطرح هذا السؤال مباشرة على القبطان نيمو .

وكان رأيي أن هذا سيثير شكوك القبطان ويعقّد الأمور ، خاصة وأنه أصبح يبتعد عنا في الأيام الأخيرة ، فلا خلاص لنا إلا في الاعتماد على أنفسنا . وطلبت مهلة للتفكير .

في العشرين من نيسان كانت النوتيلوس تتسرب في المياه المحاذية لولاية فلوريدا الأمريكية ، وكانت مياهها عامرة بالصخور الضخمة .

ولفت نيدلاند انتباهي إلى فوران الماء ، وثورانه حول الطحالب الفسيحة ، فقلت له :

– أظن أنها مغارات عامرة بحيوان الأخطبوط ، ولا يدهشني أن نرى بعضها .

فقال كونسيل :

– سنصطاد حيوان (الكالمار) إذن ؟

فقلت :

– لا .. إنه الأخطبوط العملاق ، ولعل صديقي نيد قد أخطأ لأني لا أرى منها شيئاً .

– آه .. كم أتمنى رؤية أحد هذه الحيوانات الهائلة التي ذكرها الأساطير الاسكندنافية ، وهي تُغرق السفن الكبيرة .

فقال نيد :

– هذه حيوانات لا وجود لها إلا في الخيال .

وقال كونسيل :

ولكني رأيت أحدها وهو يجرّ إحدى السفن إلى أعماق المياه .

فسخر منه نيدلاند قائلاً :

– أين رأيته ؟ لعلك رأيته في ميناء (سان مالو) ؟

فقال كونسيل :

– لا .. بل في الكنيسة .

– في الكنيسة ؟

– نعم .. رأيته مرسوماً على لوحة جدارية فيها .

وضحكنا جميعاً .

التفتنا إلى النافذة وإذا عدد من حيوانات الأخطبوط قد ألصقت أذرعتها بالغواصة وهي تتلوى ، فتراجعنا من وَقْع المفاجأة ، وكان فمها ينفتح عن لسان مزوّد بأسنان دقيقة .

وفجأة توقفت الغواصة ، وبعد دقائق دخل القاعة القبطان نيمو يتبعه مساعده ، ونظر إلى النافذة ثم قال شيئاً لمساعده فخرج ، فقلت له بلهجة هادئة :

– هذه مجموعة من حيوان الأخطبوط .

– نعم .. وسوف نشتبك معها في القتال الآن ، لأن أحدها قد التف حول المروحة فأوقف حركتها ، فيجب أن نصعد إلى سطح الماء ونتخلص من هذه الحيوانات القبيحة .

فقلت له :

– ولكن الاشتباك معها مباشرة أمر خطير .

– أعلم ذلك .. فالرصاص لم يؤثر في أجسامها المطاطية ، وسوف نهاجمها بالفؤوس .

وقال نيدلاند :

– إن رمحي جاهز ، فهل تقبل مساعدتي ؟

– بكل سرور يا نيدلاند !

وقلت له :

– إننا آتون معك .

وانتظرنا عند السلم الرئيسي حيث عشرة رجال يحملون الفؤوس .

وطفت النوتيلوس على وجه الماء ، وما كادت صواميل الغطاء تُفكّ حتى جذبه الأخطبوط جذبة قوية وانزلقت إحدى أذرعه الطويلة داخلَ الفتحة ، وتبعتها عشرون ذراعاً أخرى .

وبضربة فأس قطع القبطان نيمو إحداها ، فسقطت تتلوى بين أقدامنا .



ما إن اندفعت جماعتنا إلى السلم حتى امتدت ذراع والتفت حول أحد الرجال ورفعته بقوة هائلة ، فأطلق القبطان نيمو صرخة عظيمة وصعد إلى المنصة ، وكان الرجل معلقاً في الهواء والذراع تعصر جسده وهو يحاول التخلص منها صارخاً :

– النجدة .. النجدة !

وقد ذُهلتُ وهو ينطقها باللغة الفرنسية ، ففي الغواصة إذن أحد أبناء بلدي ، ولعل فيها سواه ، ولن أنسى هذا النداء المريع طول حياتي .

وهجم القبطان نيمو على الأخطبوط وقطع له ذراعاً أخرى ، وكنا مشغولين بمهاجمة الحيوانات التي تزاحمت على المنصة ، وقد تناثرت قطع اللحم في كل مكان ، وانتشرت رائحة مقززة .

وكان المشهد مريعاً ، وكدنا نخلص المسكين من أذرع الأخطبوط بعد أن قطعت كلها ، ورفع القبطان ومساعده فأسيهما كي ينهالا على ذراعه الأخيرة بضربة واحدة ، ولكنه

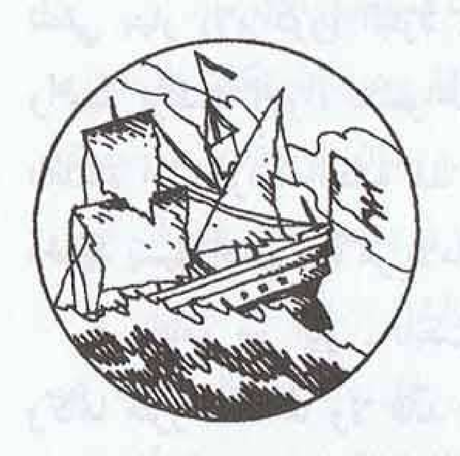
نفث مادة سوداء في وجوهنا أعمت أبصارنا . وحين فتحنا أعيننا اختفى حاملاً معه الرجل إلى عمق المحيط .

هاجت نفوسنا حقداً وغضباً وانهالت فؤوسنا على الحيوانات تقطع أوصالها ، وغرقنا في الدم والحبر الأسود ، وكان نيدلاند يطعن برمحه عيونها الزجاجية ، والتفت إلى أحدها ففاجأه فاغراً فمه وكاد ينتزع يده ، فسارعتُ إليه ، ولكن القبطان سبقني بضربة فأس إلى أسنانه . ونهض الكندي فغرس رمحه إلى آخره في قلب الأخطبوط .

اختفت الحيوانات في الماء مهزومة متقطعة الأوصال ، ووقف القبطان نيمو وهو مغطى بالدماء ينظر إلى البحر الذي خطف أحد رفاقه والدموع تسيل على خديه ..

الفصل التاسع

تيار الخليج



لن أنسى تاريخ العشرين من شهر نيسان ، وسيظل محفوراً في ذاكرتي ما حييت .

عاد القبطان نيمو إلى غرفته ولم أره لوقت طويل ، إذ فقد ثاني رجل منذ ركوبنا النوتيلوس . ولكن هذا الثاني لم يرقد في مقبرة المرجان ، وكان ألمه عظيماً ، فقد بدأت النوتيلوس تتجول عشوائياً ، ولا تبتعد كثيراً عن موقع هذه المأساة .

ولم تتخذ الغواصة اتجاهاً محدداً إلا أول شهر أيار ، إذ صعدت نحو الشمال ، وسارت مع تيار الخليج المدعو :

" غولف ستريم " ، وهو نهر من الماء المالح يخترق المحيط الأطلسي ، وتغدو مياهه دافئة في المنطقة الاستوائية لخليج المكسيك ، وتأخذ طريقها صُعُداً حتى (تيرنوف) ، حيث تلتقي بتيار (لابرادور) البارد ، ثم تتوزع إلى عدة فروع ، وأهمها يرطب أجواء السواحل الأوروبية . ويعتقد أحد العلماء أن الحرارة الكلية لهذا التيار كفيلة بإذابة جبل من الحديد يسيل بحجم مياه نهر الأمازون .

في الثامن من أيار ، تابعت النوتيلوس تجوالها العشوائي وكأنها متروكة لذاتها ولا قائد يسيرها . وكان ينبغي لنا أن ننتهز هذه الفرصة لكي ننجز خطة هربنا على الرغم من بُعدنا عن السواحل الأميركية .

وحين اقتربنا من هذه السواحل هبت العواصف الشديدة التي لا يمكن لقارب صغير الصمود أمامها ، وكان نيدلاند مدركاً هذا الخطر ، ولكنه لم يثنه عن عزمه إذ وصل إلى منتهى صبره ، فجاءني ذات يوم ، وقال :

– يجب أن نحسم المسألة يا سيدي ، ويكفيني القطب الجنوبي ، ولن أتبع نيمو هذا إلى القطب الشمالي .

فقلت له :

– ما العمل يا نيد ؟ فالهرب مستحيل الآن .

– أعود إلى فكرتي السابقة وهي أن نكلم القبطان ، فالغواصة ستسير بمحاذاة نهر (سان لوران) من منطقة الكيبك ، بلدي الحبيب . وإذا لم يستجب لي فسوف أرمي بنفسي في البحر ، ولا طاقة لي بالبقاء .

وفكرت بأن الشاب على حق ، فقد طال غيابنا عن أوطاننا ، ونحن نتجول في الغواصة منذ سبعة أشهر ، ولا تصلنا أنباءٌ عن أهلنا ووطننا ، ولا يصبر على هذه الحال سوى كونسيل الذي لم يُظهر الشكوى .

ولاحظ نيدلاند صمتي فقال :

– ماذا قررت يا سيدي ؟

– سأكلم القبطان نيمو .

– متى ؟

– حين أراه .

– لا .. بل تكلمه الآن ، وإلا ذهبت أنا لرؤيته .

– حسناً .. سأكلمه اليوم .

سمعتُ خطوات القبطان في غرفته ، فطرقت الباب عدة مرات فلم يجبني ، ففتحته ودخلت لأجده منكبّاً على أوراقه .

فرفع رأسه وقال :

– ماذا تريد ؟

– أريد أن أكلمك .

– لا وقت لدي .. إني مشغول ، هل ترى هذه الأوراق ؟ إنها محررة بعدة لغات وفيها ملخص حياتي ودراساتي ، وسوف أضعها في أسطوانة محكمة الإغلاق تطفو على الماء ، وسوف يرميها آخر رجل يبقى من طاقم النوتيلوس .

فقلت له :

– ولكنها طريقة بدائية ، ولم لا يتكفل أحدنا بنقلها ؟ إذا أطلقت سبيلنا وأعطيتنا حريتنا .

– حريتكم ؟

– نعم .. وقد جئت أكلمك في هذا الموضوع .. فنحن منذ سبعة أشهر نتجول معك ، فإلى متى سنظل هكذا ؟

– جوابي اليوم هو جوابي منذ سبعة أشهر ، فمن يدخل النوتيلوس لا ينبغي له مغادرتها أبداً .

ووقف وقد وضع يده وراء ظهره . فقلت له :

– إن رجلاً مثلي قد يسره البقاء معك ، لأني معجب بعبقريتك وابتكاراتك ، ولكنّ رجلاً مثل نيدلاند لا يمكن احتجازه إلى الأبد ، وقد يفعل بنفسه أمراً مكروهاً .

– ليفعل ما يشاء ، فلا يهمني أمره . واعلم أنك إذا كلمتني في هذا الموضوع مرة ثانية فلن أصغي إليك .

فنقلت إلى صاحبيّ ما دار بيني وبين القبطان ، فقال نيدلاند :

– إننا واثقون الآن أنه لا يمكن توقع الخير من القبطان ، وما علينا سوى تنفيذ ما نقدر عليه .

يوم الثامن عشر من نيسان هبّ إعصار قوي والنوتيلوس في عُرض مياه نيويورك ، وخطر للقبطان نيمو لنزوة لا أعرف سببها أن يواجه الإعصار بدل أن يغوص في الماء . فوقف فوق المنصة والرياح تعصف من حوله والأمطار تتهاطل بغزارة ، والنوتيلوس تتقاذفها الأمواج كأنها قارب صغير .

وحوالي الساعة الخامسة ، اشتدت قوة الرياح حتى بلغت سرعتها مائة وخمسين كيلو متراً في الساعة ، وعلت الأمواج حتى خمسة عشر متراً . ويُذكَر أنه في سنة **1864** هبّ هذا الإعصار على مدينة (يدو) اليابانية فدمرها ، ثم تحطم على الساحل الأميركي وسرعته سبعمائة كيلو متر في الساعة !

قبل الغروب رأيت سفينة ضخمة تصارع الأمواج ، وأظنها تربط ما بين نيويورك وميناء (الهافر) ، ثم اختفت عن الأنظار .

الساعة العاشرة مساءً ، اشتعلت السماء بالبروق حتى حسبت نفسي في وضح النهار ، وارتجّت الآفاق لقصف الرعود ، واختلط هديرها باصطخاب الموج وهطول المطر .

وكان (الغولف ستريم) مشهوراً بعواصفه ، وحين رفعت النوتيلوس رمحها الطويل إلى السماء ، فكأنها تستدعي إليها البروق والأعاصير ، وكأن القبطان نيمو يبحث لنفسه عن مِيتةٍ كريمة تحت البرق اللامع . فزحفتُ وقد انهارت قواي وهبطت إلى داخل الغواصة ، وكان يستحيل الوقوف فيها ، ثم نزل القبطان حوالي منتصف الليل ، وغاصت النوتيلوس في أعماق الماء ، وقد بلغت شدة الإعصار حداً اضطرها إلى الغوص خمسين متراً لتجد المياه الساكنة .

ورمت هذه العواصف بالغواصة بعيداً عن السواحل الأميركية والكندية .

بذلك فَقَد نيدلاند كل أمل في الفرار ، فأغلق باب غرفته ولم يخرج منها عدة أيام ، وساحت النوتيلوس على هواها بين حطام السفن الغارقة ، وكأنها شاهدة على الموتى .



يوم 15 أيار وصلت النوتيلوس إلى عُرض مياه (تيرنوف) ، واخترقت أسراباً هائلة من سمك (المورة) ، فقال كونسيل :

– ما أكثر عددها ! لا ريب أنها تبيض بكثرة .

– وكم تقدّر بيض كل سمكة منها ؟

– خمسمائة ألف بيضة .

– بل أحد عشر مليون بيضة يا ولدي !

– أحد عشر مليون بيضة ؟ لا أصدّق حتى أعدّها .

– عُدّها حين تستطيع ، ولكنك سترجع إلى رأيي .

فقال كونسيل :

– ما يقوله سيدي هو الصواب ، ولكني ألاحظ أنه تكفي أربع سمكات منها إذا عاشت كل بيوضها لإطعام قارة واسعة .

اتجهت الغواصة شرقاً وكأنها تريد الوصول إلى الجزر البريطانية .

وظلت يوم 13 أيار تتجول حول نقطة معينة وكأنها تبحث عنها .

ورأيت القبطان نيمو ظُهراً وقد بدت عليه الكآبة ، وكأنما تثير لديه هذه السواحل الأوروبية ذكريات حزينة ، وكان لدي الإحساس بأن المصادفة ستكشف لي هذا السر الذي يخفيه عني .

من الغد أول حزيران ، صعدتُ إلى المنصة قبل الظهر ، وكان البحر هادئاً والسماء صافية ، وفي الشرق سفينة كبيرة تعبُر الأفق ، ورأيت القبطان نيمو يمسك السُدْسية ويأخذ مقاييس محددة ، ثم هتف :

– المكان هنا .

ورجعتُ إلى القاعة ، فغاصت النوتيلوس بشكل عمودي ثم توقفت محركاتها ، وبعد دقائق كانت رابضة في قاع البحر ، ثم رُفعت ستائر النوافذ وأضيئت الأنوار الكاشفة ، فجذب انتباهي كتلة ضخمة قد التفت حولها الطحالب وتراكمت عليها المحارات ، وتفحصتها جيداً وإذا هي شكل سفينة .

ما هذه السفينة ؟ ولِمَ تقف النوتيلوس في موقع غرقها ؟

وارتفع صوت القبطان بجانبي :

– قديماً كان اسم هذه السفينة " المارسيلي " .. وفي سنة 1794 أعيدت تسميتها ، وكانت أثناء الثورة الفرنسية تحمل شحنة كبيرة من القمح واردةً من أميركا ، فتصدى لها الأسطول البريطاني ، فآثرت الغرق على الاستسلام للأعداء ، وبحارتها يهتفون : " عاشت الجمهورية ! " .

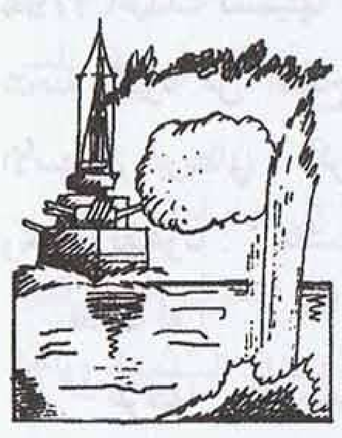
فقلت له :

– عرفتها .. إنها سفينة " المنتقم " !

– نعم .. يا سيدي ، إنها " المنتقم " ، ويا له من اسم جميل .

الفصل العاشر

آخر ما قاله القبطان نيمو



نظرت إلى القبطان نيمو وهو يحدق في حطام السفينة المجيدة ، ولم ألمح فيه الرجل العالم ، بل الإنسان .. لا ، إنه لم يعتزل الناس إلاّ لأنّ الحقد تأكّل كبده ، وقد فضح اسم السفينة " المنتقم " حقده هذا .

وطفت النوتيلوس إلى السطح بهدوء . في تلك اللحظة سمعت صوت طلقة مكتوماً ، فالتفت إلى القبطان فلم يتحرك ، وناديته فلم يُجب ، فصعدت إلى المنصة حيث وجدت كونسيل ونيدلاند ، وسألت :

– ما مصدر هذه الطلقة ؟

– هذه قذيفة مدفع .

وكانت السفينة التي رأيتها في الأفق متجهة نحونا :

– ما هذه السفينة يا نيد ؟ هل تعرف جنسيتها ؟

فحدق إليها الكندي ثم قال :

– ليس عليها راية بلدها ، ولكن البيارق المثبتة على صواريها تشير إلى أنها سفينة حربية .

واقتربت السفينة أكثر فتبين لنا أنها بارجة ، فقال نيدلاند :

– إذا ترك القبطان نيمو هذه البارجة تدنو منا ، فسوف أرمي بنفسي إلى الماء ، وأنصحك أن تفعل مثلي .

وفتحت فمي لأجيبه ، وإذا سحابة من الدخان الأبيض تندفع من مقدمة البارجة ، يصحبها صوت هائل ، وبعد ثوان كانت مؤخرة النوتيلوس قد انحنى فولاذها ، فصحت :

– إنها تطلق قذائفها علينا .

وقال نيدلاند :

– بارك الله فيكم يا رجال ! لقد عرفوا سر الغواصة وهم يهاجموها .

وقلت له :

– لقد عرفوا إذن أنهم لا يهاجمون الحوت الأقرن !

وعدت بذاكرتي إلى الوقت الذي كنا فيه على متن الفرقاطة أبراهام لنكولن ، فقد أدرك الضابط فرغات أن الحوت ليس سوى غواصة ، وذلك حينما انزلق رمح نيدلاند عن سطحها الفولاذي ، فكانت قوات البحرية تطاردها في أنحاء المحيطات لكي تدمرها ، وتقتل الرجل الذي يستخدمها أداة لانتقامه ، وحين حبسنا القبطان نيمو وسط المحيط الهندي ، كان يهاجم إحدى السفن ، والرجل الذي دفنه في مقبرة المرجان قد أصيب في ذلك الهجوم .

اقتربت البارجة حتى أصبحت على مسافة ثمانمائة متر منا والقذائف تتقاطر علينا ، فصرخ نيدلاند :

– لماذا لا نشير إليهم لعلهم ينقذوننا ؟

ورفع منديله ليلوح به وإذا بيد من حديد تقبض عليها ، فرماه وصرخ به القبطان نيمو وقد احمر وجهه :

– أيها الشقي ! هل تريد أن أجعلك على رمح النوتيلوس وأهجم بها على البارجة ؟

ثم ترك يده وتوجه إلى البارجة التي ارتفع الدخان من حولها ، وهو يصيح :

– آه .. تعرفين مَن أنا أيتها البارجة ، يا بارجة الأمة الملعونة ، ولست بحاجة إلى رؤية راياتك لأعرف أصحابك .. انظري رايتي الجديدة !

ورفع القبطان راية مثل تلك التي نَصبها على القطب الجنوبي ، ثم قال لي :

– اهبط إلى تحت أنت وصاحباك !

– لا أظنك ستهاجم البارجة !

– بلى .. سأغرقها .

– لن تفعلها !

– بل أفعلها ، ولست أنت من يحاكمني ، إنني القانون ، إنني المظلوم وهؤلاء الظالمون ، هم الذين قتلوا من أحب : قتلوا زوجتي وأولادي وأبي وأمي .. وأمامي الآن كل ما أحقد عليه .

– هذه هي البارجة التي ..

– لا تعلم إذن ؟ هذا أفضل ، لأن الأمة التي وراءها ستبقى سراً مكتوماً عنك .. اهبطوا !

وهبطنا وإذا قنبلة أخرى تسقط على الغواصة ، فارتفع صوت القبطان يصيح :

– اضربوا ما استطعتم ، فلن تفلتوا من رمح النوتيلوس ، ولن تغرقوا هنا ، بل سيكون قبركم فوق سفينة " المنتقم " ليختلط حُطامكم بحُطامها .

أقبل الليل ، وران صمت عميق على البحر ، ووقفتُ على المنصة من الساعة الثالثة حتى الخامسة دون أن يُبالي القبطان بي ، وهو يحدق في البارجة كأنما يريد أن يلتهمها بعينيه . ثم صعد مساعده ، فاتُخذت إجراءات الاستعداد

للمعركة دون أن يتوجه بالكلام إلى القبطان ، وأُسْدلت الستائر المعدنية على الواجهات الزجاجية وفوق الأضواء الكاشفة ، حتى غدت النوتيلوس كتلة من الفولاذ الأملس .

الساعة السادسة ، أبطأت النوتيلوس من سيرها ، وكأنها تستدرج البارجة إليها ، وتقاطرت القذائف عليها وانفجارها يكاد يصمّ الآذان . وقلت لصاحبيّ :

– لقد حان الأوان !

وحين فتحتُ باب المكتبة المؤدي إلى السلّم المركزي ، سمعت الغطاء الحديدي ينغلق ، واندفع نيدلاند إلى درجات السلم ، ولكن الخزانات قد امتلأت بالماء .

لن تضرب النوتيلوس البارجةَ تحت الماء ، بل فوقه .

واندفعتْ بأقصى سرعتها ، وشعرتُ بصدمة هائلة ، فصرخت فزعاً ، ثم ارتفعت أصوات الاستغاثة والحديد يتمزق . ولكن النوتيلوس استمرت في اندفاعها حتى اخترقت البارجة ومرّت عَبْرها كالإبرة تنفذ في قطعة قماش .

ولم أعد أطيق صبراً ، فاندفعت إلى القاعة الكبرى حيث وجدت القبطان صامتاً جامد الملامح ، ينظر من النافذة الزجاجية إلى الماء : كانت كتلة سوداء ضخمة ترسو في القاع ، والنوتيلوس تهبط معها ، وفجأة حدث انفجار هائل وغرقت البارجة ، ورجالها يهرولون على سطحها ، يحاول كلٌ منهم النجاة بنفسه ، ثم انهارت وحجبت عني كل شيء .

توجه القبطان نيمو إلى غرفته ، وفتح بابها ودخل .

وتبعته بنظري فرأيت على الجدار المقابل للباب صورة امرأة شابة وولدين ، فانتزعها وضمها إلى صدره ثم انخرط في البكاء .

بدأت أحس بالرهبة والخوف من هذا الرجل الذي لا يبرر وحشيةَ انتقامه أيُّ شيء ، ولم أكن شريكه ، بل شاهداً على جريمته ، وهذا ذنبٌ عظيمٌ .

عاد النور حوالي الحادية عشرة ، وكانت النوتيلوس تجري بسرعة نحو الشمال ، ولم يعد يظهر أحد من رجالها على

السطح وكأنها تسير وحدها ، حتى فتحات التهوية كانت تُفتح وتُغلق آلياً .

لم أعد أعرف أين نحن ، وهل استمرت مسيرتها المجنونة خمسة عشر يوماً أم عشرين ؟ ومتى ستتوقف ؟ وما كنت لأعرف لولا أن حلت بها كارثة وضعت حداً مفاجئاً لهذه الرحلة .

ذات صباح ، كنتُ جالساً في المكتبة وأنا أشعر بشيء من التعب ، وكدت أغفو حين جاء إليّ كونسيل ونيدلاند الذي همس لي :

– سنهرب .

فاعتدلت في جلستي وسألته :

– متى ؟

– هذه الليلة ، فالنوتيلوس بلا حراسة ، وقد لمحت عبر الضباب الأرض من ناحية الشرق .

– وما تلك الأرض ؟

– لا أدري .. وسوف نلجأ إليها مهما كانت !

– نعم يا نيد ، لنهرب حتى لو جازفنا بأرواحنا .

– البحر هائج ، ولكني لا أخشى عشرين كيلو متراً في قارب النوتيلوس ، وقد نقلتُ إليه بعض المؤونة والماء .

– سآتي معكما .. وإن متنا معاً يا نيد !

فقال نيدلاند :

– العاشرة لا يظهر القمر ، وسوف نستفيد من العتمة ، وننتظرك أنا وكونسيل عند القارب .

كنت أسمع صوت الأرغنّ يعزف عليه القبطان نيمو لحناً جنائزياً حزيناً ، ودقت الساعة العاشرة فنهضتُ بعد أن ارتديت ملابس دافئة وجعلت مذكراتي تحت قميصي . ولكني ترددت لأنه ينبغي لي أن أجتاز المكتبة ، وسوف يراني القبطان ، وقد ينتبه إليّ ، ولم أبال بالخطر ، فعبرت المكتبة ولم يلتفت إليّ إذ كان غارقاً في موسيقاه الجنائزية .

ركضت بسرعة إلى السلّم المركزي ، ووصلت إلى القارب وصحت :

– أسرعا .. أسرعا !

وأجاب الكندي :

– حالاً !

وبدأ يفك الصواميل التي تربط القارب بالغواصة ، وإذا أصوات مختلطة تصل إلينا ، فهل لاحظوا هربنا ؟

وأمسك نيدلاند خنجراً ، وهو يهمس لي :

– إنها ساعة الموت .

ولكن ترددت على سمعي كلمة واحدة عشرات المرات ، وكانت سبباً في هذا الاضطراب والهياج على متن النوتيلوس ، ولم يكونوا يبحثون عنا ، وإنما أفزعتهم كلمة :

" مايلستروم .. مايلستروم ! "

والمايلستروم اسم الإعصار الذي أطبق على النوتيلوس قرب السواحل النرويجية ، على حين كان قاربنا ما يزال مربوطاً إليها ، واقتلع الإعصار الأعشاب والصخور من قاع البحر ، وابتلعت دوامته الغواصة ولفّتها داخلها ، فقال نيدلاند :

– يجب أن نتشبث بالغواصة ونعيد شدّ الصواميل إليها .. هذه فرصتنا الوحيدة .

ولكن الإعصار انتزع القارب وقذفه كحجر المقلاع وسط الدوامة ، واصطدم رأسي بشيء صلب .. وغبت عن الوعي .

خاتمة

كيف نجا القارب من الإعصار الهائل ؟ وكيف نجونا من الدوامة العميقة وسط الأمواج ؟ لست أدري .

حين فتحت عينيّ وجدتُني في كوخ صياد من جزر (لوفوتن) ، ورأيت صاحبيّ بجانبي سالمينِ من الأذى ، فاندفعنا يعانق بعضنا بعضاً ، وانتظرت لدى هؤلاء الصيادين الطيبين مرورَ سفينة تنقلني إلى فرنسا ، وكنت أستعيد في ذاكرتي تلك الأحداث التي عشتها ، وأتساءل عما إذا كنت سأجد مَن يصدقني .

ماذا كان مصير النوتيلوس ؟ وهل نجا القبطان نيمو من الإعصار ؟

آمل ذلك ، فلعل ذلك العبقري الذي اتخذَ البحرَ موطنه يتناسى أحقاده وينصرف إلى علومه ، وتنتفع البشرية بها .

إن حياته عجيبة ولكنها عظيمة ، فقد كان يحدق بعينيه في أعماق الجحيم ، فهل أدرك معنى الحياة بعد أن نجا من الموت مرات ومرات ؟

هذا سؤال لا يعرف جوابه سوى القبطان نيمو ، وأنا ..

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني



عشرون ألف فرسخ تحت البحار

جول فيرن

RABIE